The legend Of Agmed

أسطورة أقمد

الزنزانة 905

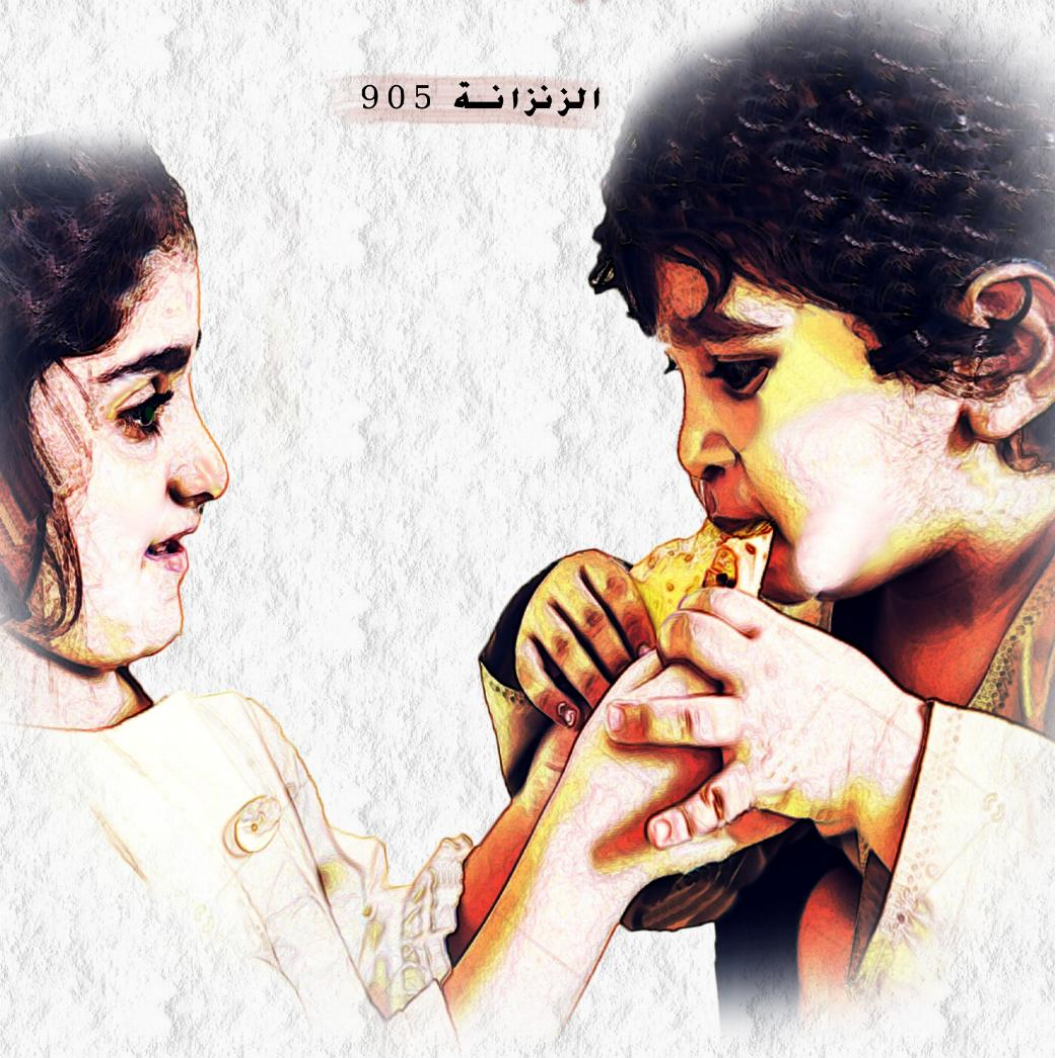

رواية

بلغنا مي عبد الرحيم

أسطورة أقمد

الزنزانة 950

الكتاب: أسطورة أقمد

المؤلف: بلغنامي عبدالرحيم

الطبعة الأولى 2020

ISBN978-91-89273-94-8

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2020-12-26 16:28

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، فاستراء جوتالند

هاتف: 0046790185518

البريد الإلكتروني: digitizethearabicbook.com

جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي– ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر أو المؤلّف.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

مقدّمة

إذا طال العمر سأنام قبيل منتصف الليل يوم 27 سبتمبر 2041 آخر يوم يكون فيه عمري 49سنة، ولن أستيقظ إلا بعد منتصف الليل الذي بعده، وحين أستعيد وعيي سأبدأ كتابة رواية سيرة ذاتيّة أحكي فيها توقّفي عن الكتابة في سنّ الثلاثين نكاية في وعدي الذي كنت قطعته على نفسي قبيل منتصف ليل يوم 27سبتمبر 2021 آخر يومٍ كان فيه عمري ثلاثين سنة... أنظر مشدوها للحظات ثمّ أتساءل: "ما كان ذلك الوعد يا ترى؟"، حينها أدرك أنّي كنتُ مُحقّا في سنّ الثلاثين مهما كان الوعدُ الّذي قطعتُه... أضع القلم وأقرّر ممارسة بعض الرّياضة فلم يعد القلم يناسب مقاس يدي، يا إلهي لقد عمّرتُ طويلا! كنت أنوي الرّحيل قبل عشرين سنة ويوم، الآن جعلتُ الدّنيا سعيدة وهي تستعدّ للتخلّي عنّي، نعم! سأمارس بعض الرّياضة لأكون بخير قدر الإمكان، أتذكّر الآن! لقد مارستُ الشِّعر أيضا في السابق! وضعتُ الخطوط والدّوائر كي لا أكسر الوزن، سرعان ما أصبحتُ أصلحه بمجرّد سماعه، لازلت أسمع بكاء فلانة وفلانة ولا أشعر بالحزن، بلْ أحاول تصليح الكسور التي تتخلّل شهقاتهنّ، بعد مدّة يرحلن ويصفنني قائلات: "أنت جارح"، أتأثر بهذا النغم، أستوقف إحداهنّ ممسكا يدها وأقول لها:

"جارحٌ: هي على وزن فاعلُنْ... وتد مجموع وسبب خفيف"!

فتجيبني:" بل هي سبب خفيف ووتد مجموع".

أردّ قائلا: "لكنّ الواو لا تفيد الترتيب".

فتقول: "لكنّ الترتيب يفيد الجميع"!

أعيد ترتيب قراراتي وخططي فورا وأطلبها للزواج لتكون معي بعد عشرين سنة ولا أضطرّ للنّوم قبيل منتصف اللّيل هروبا من الخمسين...كلّ الّذين ندع الحقيقة من أجلهم يعودون إلى الحقيقة ويثبتون أنّنا واهمون.

يبدو أنّنا نكبر ونفقد أنفسنا بين الأشياء الّتي كسبناها...

بلغنامي عبد الرحيم

26يناير 2020

إهداء

إلى الّذين وقفوا في وجه الشّمس وهي تحرقنا، وأبصرونا حين جلسنا مفردينَ في الظّلال.

أسـطورة

أَقْـمَـدْ

– الزنزانة 905 –

بلغنامي عبدالرّحيم

التقبُّل...

الموت هو كل الامور الحتمية التي نتجنَّبها، حتّى ونحن غير واثقين من حتميّتها؛ لذلك لتجنبّه علينا الاستعداد له والاقبال عليه بيدين مفتوحتين، في كلّ مرّة نتجنّب قدومَ اللّيل يقتلُ ظنَّنا غيابُ الشّمس، في كل مرّة حاولنا فيها التمسّك بأشخاصٍ ينوون الابتعاد، كان يقتلُ محاولاتِنا الرّحيل؛ وفي المرّات الّتي اشتهينا فيها الأبدية قتل شهوتنا الفناء وألقانا جثثا بجانبِ بقاياها.

قضيتُ سنين طويلة أعلِّم فيها الموتَ كيف يحتضنني، ذاك لأنه لا يعرف كيف، هو يراقبني ويقلّدني فحسب... ليتعلَّم منّي، الموت هو أنا حين أهرب من الموت!

كيفَ سيعلّمنا كلُّ هذا التقبّل؟ بل هل التقبّل لا يعدو كونَه رفضا يخلو من التّعبير ولو أتيحتْ له الفرصة لَصَرخ حتّى ينشقّ حلقه؟ وبطشَ حتّى تُسحقَ أجزاؤُه؟ غالبا ما لا نتغلّبُ على رغباتنا وشهواتنا إلى أن نضطرَّ إلى ذلك، كمريضٍ يتمنّع عن طعامِه المفضّل الّذي يؤذيه، التقبّل مصطلحٌ ظالمٌ لما تشعر به ذواتنا حقيقةً، المشاعر الّتي تتملّكنا توزَّع بين قبولٍ ورفضٍ وليسَ على أيّ منهما أن يكونَ

مسموعا وواضحا دوما! إن كنتُ حقّا تقبّلتُ فقدان إيمان، فهل سأواصل حياتي فحسب لو بدرَ أيّ إمكانٍ لملاقاتِها مجدّدا؟

مجرّد مرحلة

سنة مرّتْ وها أنا ذا عدتُ إلى الوطن في ذات التّاريخ ككلّ سنة، ويصادفُ عودة أريام إلى الجامعة آتية من بيتِها في تيزي–وزّو، أخبرتني ذاتَ مرّة أنّ رغبتَها في التّغيير والهروب من حياة الرّكود ما جعلها تأتي، أراح هذا ضميري كثيرا بحكمِ أنّي لستُ سبب انتقالِها للدّراسة هنا أو فلنقل أنّي لست السّبب الرّئيسي على الأقلّ.

دافعٌ قويّ يجعلني أتخيّر هذا التّاريخ لزيارة الوطن ولا شكّ عندي أنّ لذلك علاقة بإيمان، كانَ اليومَ الّذي التقينا فيه بساحة الابتدائية وانتقلنا إلى المتوسّطة ثم الثانوية ثمّ الجامعة فيه، ومن يومِها جعلناه عيدا نعملُ على الالتقاء فيه وجعلِه مختلفا عن بقيّة الأيام... مضتْ فترةٌ لا بأس بها منذُ رحيلِها عنّي جعلتْ مشاعري تستقرّ، أستلقي هنا في غرفتي المظلمة على فراشي النّاعم وفي هذه اللّحظة؛ أشعرُ كأنّ لا شيء يستحقّ النّهوضَ من أجله، من الصّعبِ أن أشعرَ بالملل، هذه الجدرانُ أرفعُ من أن تحجزني داخلَها، أفكاري ومخيّلتي تتسرّبان عبرَها باستمرار، ليست كلّ الأماكن المغلقة سجونا، ما يدْعونَه سجنا حرّر أفكارا جبّارة خلقت ثورة في الفكر والدّعوة و "الرّاب" وغيرها...

قبلَ أيّامٍ عديدة، أضافتني مجهولة على حسابي، أخبرتُها أنّي نادم على كلّ الأوقات التي كنت أستطيع الضّحك فيها ولمْ أفعل! حذفتني ثمّ أرسلت رسالة بعد أيّام من ذلك: "أعطيتني شيئا جديدا أندم عليه الآن".

أجبتها: " بل ثلاثة أشياء، الضحكات التي لم تضحكيها وإضافتي وأخيرا حذفي، إنه أكبر عدد من الغلطات في وقت قياسي لشخص أعرفه".

قالت: "لكنّك لا تعرفني!"

أجبتها: "أعرف ما يكفي".

سألتني: "وماذا تعرف؟"

أجبتها: "أنّك متخمة بالندم!"

تقول اليومَ أنّي أفضل شيء سيء حدث لها منذ فترة وأنا ... أحاول أن أتظاهر بتكذيبها، الأشياء الجيّدة في يومنا تحتاج الكثير من المال والسّيئة تحتاج إلى مالٍ أكثر، وأنا لا أساوي كلّ هذه الثروة... ربّما أساوي كنزا وحدي أقدّره!

قريبا سأتقدّم لخطبة "أريام"، لا أدري هل هي جميلة لأنّها من منطقة القبائل أم أنّه يمكن وصفها بالقبائليّة فحسب لحُسنِها الطّافح، فاسم المنطقة أصبحَ مرادفا

للجمال في عُرف الشّباب اليوم، لقدْ تعارفنا سابقا بفضل "ميلين" زوجة صديقي "أحمدْ"، يقول أنّها مميّزة وذكيّة وليس لي أن أشكّ في نظرته الثّاقبة ومعرفتِه الواسعة بالآخرين وبالنّساء خاصّة، ما يقلقني في الواقع هو ذاك الأمرُ الّذي لا تعرفه عنّي، أخشى من ردّة فعلها إن اكتشفت أنّ لقائي بها كانَ مخطّطا له ببراعة ليبدو كصدفة جميلة...

يعودُ الأمر إلى أيّام خلت، في وقتٍ مضى كانتْ أريام حبيبةَ "عليّ" ذاك الطبيب الّذي تخلّى عنها من أجل حبيبتي السّابقة "إيمان"، كنتُ مهوسا جدّا بإيمان ولا أتخيّلها مع شخصٍ غيري، ما جعلني أستنتجُ أنّ إيمان تخلّت عنّي من أجله أيضا؛ لكنّ الحقيقة كانت بعيدة عن هذا كلّ البعد، فابتعادُها عنّي كانَ من أجلِ ألّا أتألّم كثيرا بعد أن أدرَكتْ أنّها ستموتُ قريبا، كلّ ما أرادتْه هو حمايتي من مرحلة لا تكونُ فيها موجودة من أجلي، ووجدتْ في عليّ الشّخص الّذي سيحرصُ على تنفيذ رغبتِها ووصيّتها بعد رحيلِها... كتبتْ إيمان وصيّة تتبرّع فيها بقلبِها لي... لم يجرِ الأمر تماما كما أرادتْه، عشتُ معنى الحسرة وأنا أراها ممدّدة على السّرير دون حراك، بعضُ الجروح يتركُ ندوبا وبعض النّدوب يبقى مؤلما مهما تقادم بالزّمن، تساءلتُ طويلا عن السّبب الّذي أوحى لها بالتّبرّع بقلبِها لي، شعرتُ أنّها طريقتُها للحفاظ على وعدها الّذي قطعتْهُ لي في يومٍ سعيدٍ... كلّ ما

أذكره أنّه كان كذلك، نسيتُ كيف تكون السّعادة، شكلها وطعمُها ولونُها... في النّهاية اهتدى قلبي إلى ما بدا لي الخيار الأفضل، بِدوري تبرّعتُ بالقلب لفتاة مريضة تدعى "يسرى" لاحقا.

كنتُ متهوّرا وعديم المسؤوليّة أيّامها في الوقتِ الّذي كانتْ فيه إيمانُ مريضة تُنازلُ رغبتَها في لقائي واحتضاني، وتعدُّ رفقة الطّبيب عليّ خطّة لمرحلة سأعيشُ فيها دونَها، كنتُ أسعى للظّفر بأريام بعد اكتشافي أنّها كانتْ حبيبة الطّبيب عليّ المميّزة، تملّكتني رغبة في الانتقام ولم أستطع كبحَ جماحِها... لكن بعد أن تعرّفتُ على أريام وبدأتُ باكتشاف روعتِها اختفى ذاك الحقد من قلبي، خاصّة بعدَ علمي أنّ "عليّا" و"إيمان" لم يكونا على علاقة... لا نعرف كيف هو الكره إلّا في اللّحظة التي نكره فيها، بعدها نتذكر أنّه كان شعورا قويّا فحسب، هذا شبيه بقول الكاتبة: " اللّيلُ حرٌّ والصبحُ الكئيب مقصلة، القلبُ حرٌّ والكرهُ مجرّدُ مرحلة".[1]

قرّرتُ أن أواصلَ حياتي مع أريام وأنْ أعتنيَ بها، أن أحاولَ تعويضها عن خيباتِها ولا أكونَ مجرّد خيبة أخرى، سأخفي الأمرَ فحسب، أريام لا تستحقّ

[1] للكاتبة رحمة بن مدربل

مزيدا من الصّدمات، عليَّ أن أواصل الكذب لأنّي لم أكن صادقا، التّنازلات ما هي إلّا واجبات لم نقم بها! ربّما تفكيري هذا متطرّف إلى حدّ يوافق فيه عقيدة الكارما الّتي تظنّ أنّ كلّ ما نلاقيه هو نتيجةُ أفعالنا، كلّ المصائب الّتي تحلّ بنا هي إخفاقات وانحرافات وذنوب اقترفناها سابقا... لكنْ ما عسانا نفعلُ وكلّ أعمالِنا تطفرُ في مستقبلِنا تارة كصدفة تدفع إلى التّعجّب وتارة كغلطة تدعو إلى النّدم وليسَ بوسعِنا أن نكيلَها لنختار إلّا بعدَ انتهاء أثر العمل نفسِه وفوات الأوان، حتّى أنّ بعض الآثار لا ينتهي إلّا بانقضاء أيّامنا وبعضُها يبقى جاريا بعدنا، فيكون في أفواه ذاكرينا دعاء جميلا أو لعنا ثقيلا، أغرسُ في أرضِ أحلامي أجملَ الأزهار وأخشى أنّها ليستْ إلا جنّةً فوقَ جزيرة تغرق.

الأسطورة الشّعبيّة أڤمد

خلال الأيّام السّابقة روتْ لي أريام فصول الأسطورة الشّعبيّة الّتي يعرفُها قلّة في منطقتهم، قصّة التّنين "أڤمد"، كانتْ من أجملِ ما سمعت، نقلَ إليّ صديقي "أحمدْ" أيضا سابقا بعضَ فصولِها الّتي رواها له والد زوجته ميلين، امتدّت القصّة طيلة عشرين فصلا بأحداث عجيبة وممتعة، كانَ أڤمد في البداية أفعى من الأفاعي قبلَ أن يخرجَ بحثا عن جوابٍ لسؤال أرهق تفكيره: "هل الواحدُ منّا يتغيّر؟"، لكنّه أثناء رحلتِه رأى كثيرا من العجائب وتحوّل بسبب السّحر الّذي في بحيرة قريتِه إلى تنّين أسطوريّ.

طرحَ أڤمد على البحيرة السّؤال وألقت عليه تعويذةً جعلته يتّصف بصفات الأشياء الّتي يتناولها ويأخذ قوّتها ثمّ مضى في رحلة طويلة، وبعدَ أن وجد الجوابَ أخيرا كانَ شكلُه قد تغيّر تماما وتحوّل من أفعى لطيفة إلى تنّين ضارٍ، فاكتسب المناعة ضدّ النّيران من أكل العجوز بومبيه والنّار الحمراء من أكل الجنّ والنّيبان من التهام القوارض وسرق النّار السّوداء من تحتِ جفنِ العفريت آبانوخ، وأخيرا اكتسب الأجنحة من أكل صديقه البعوضة "توشوشت" ليصبح تنّينا كاملا.

بعدَ أن أنقذ أَڤمَد العالم، رفضَ سكّانُ قريتِه عودتَه إليهم لأنّهم لم يتعرّفوا عليه لأنّه تغيّر كثيرا، حينَها عاد إلى أرض التّنانين أين أصبحَ ملِكا عليهم بعدَ هزيمة قائدهم... اضطرّ بعد ذلك لمواجهاتٍ مع كائنات كثيرة انتصارا لمملكته الّتي يحكمها كمخلوقات الأدفل وحاصد اللّيل والدّمويّة ددّان، لكنّه وجدَ نفسَهُ في صراعٍ شرسٍ مع مخلوقات من مستوى آخر؛ معظَمُها كانَ من العالمِ السّفليّ الّذي يحكمه الشّيطانُ "أولَك"، أولك كانَ يسعى للانتقام من العفريت الأوّل موايي لأنّه خانَه مع الفزّاعة الّتي كانَ مولعا بها، اضطرَّ أڤمد إلى إعادة بعثِ العفريتِ الأوّل "موايي" والّذي قبَع في جزيرة القيامة طويلا على شكل تمثال صخريّ، استطاع أڤمد بمساعدة البعوضة "بريغيل" والسّاحرة العظمى "آريناس" إنقاذ العالم من خطر الشّيطان أولك، وتمكّنوا من بعث العفريت "موايي" في النّهاية، والّذي اعتمدوا عليه في سدّ الخلل الموجود بباب العالم السّفليّ لألّا يتسرّب شيء مجدّدا إلى عالمهم، حدثَ كلّ هذا في يومِ النّبوءة الموعود، تطلّبت إعادة بعث العفريت "موايي" فتحَ بوّابة العالم الآخر، البوّابة الّتي لم تُستحلّ إلّا مرّة واحدة، وكان ذاك في قديم الزّمن يومَ قرّرت الأرواح إعادة بعث عفريت الجبل الرّوح "أغوليد"، العبث بالطّبيعة له ثمنه، يومها تسرّب شيء ما من العالم الآخر، شيءٌ يريد العودة بشدّة إلى هذا العالم!

عمّي موسى

إلى هنا توقّفت الحكاية الّتي روتها لي أريام في الوقتِ الّذي كانَ يقتلني فيه الفضول لمعرفة المزيد، ما هذا الشّيء الّذي تسرّب إلى عالمهم؟ وما الّذي فعله العفريت موای لسدّ الخلل بالبوابة؟ وهل هذا الشّيء أقوى من موای الّذي يعتبر –على حدّ علمي–أقوى مخلوق على الإطلاق؟ ولماذا التزم الشّيطان أولمك الصّمت وهو الّذي أعدّ كلّ شيء من أجل الانتقام؟ هل حقّا هربت منه الفزّاعة وأبناؤها الدّمى السّاحرة أمْ أنّها مجرّد خطّة خبيثة من أولمك مجدّدا؟ كانتِ التّساؤلات تطرح نفسها بكلّ بساطة ولم أكن بحاجة للبحث عن أيٍّ منها، قالتْ أريام أنّ شخصا وحيدا كانت تشاعُ معرفتُه ببقيّة القصّة ويدعى "عمّي موسى"، لكنّه توفّي ولم يترك خلفا ولا عائلة، اندثرت هذه الرّوائع معه، لا أحدَ يؤكّد هذا الأمر، قصّة عمّي موسى مجرّد أسطورة أخرى.

انتابتني فكرة مجنونة، تَزاحمُ الأفكار وحدَه يقودُ إلينا أجمَلها، الأفكار الأجملُ تحتاجُ إلى ضغط، أمّا الفراغُ فيبقيها عالقة وسطَ ممرّ ما، فكّرتُ في إتمام الأسطورة بفصولٍ من مخيّلتي، كانتْ فكرةً بمرتبةِ هوس، من الصّعبِ عليّ إيقاف سيل الأفكار، الأمر شبيه بالتيّار الكهربائي، سرعة الالكترونات ليست سببا في

لحظيّته، السّرّ في ذلك هو تدافع الالكترونات المتراصّة خلفَ بعضِها، يكفي دفعُ أوّلها ليندفعَ آخرها في اللّحظة نفسها، كانَتْ كلمةٌ حكيمةٌ كافيةً لتحريك كلِّ الأفكار الّتي تنتظر إشارة منّي، أحيانا –وفي طريقي إلى العمل–كنت أطأطئ رأسي بينما تشرق الشّمسُ على وجهي من خلال نافذة الحافلة، كنت أعلمُ أنّي لو رفعته سأقول شيئا جميلا ولن أستطيع التوقف حينَها وسيشغلني ذلك عن عملي.

فكّرتُ في مكانٍ يناسبُ روحَ القصّة، مكانٍ مشبّع بالتراث ومسكونٍ بالأساطير الكثيرة الّتي تحاك عنه، فكّرت في مكانٍ يمكنني فيه الْتقامُ كأسِ الشّاي والاستمتاع بالشّمس الدّافئة الّتي يتخلّلها ظلّ أوراق الشجر، مكانٌ يَنثر فوقَه النّخيل تمورَهُ ريثما يحلّ الصّيف المقبل، ورائحة الأعشاب المتسرّبة من بيوت الطّوب تصِفُ ما في القصاع والقدور، مكانٌ تُفرش فيه الأغطية وعليها الكسكس المفتول وأوراق النّعناع ليجفّا، مكانٌ لا يخزّن فيه لحم العيد في الثّلّاجة، بل يتبّل بأعشاب ذات رائحة مميّزة ويجفّف، ثمّ يتحوّل إلى حشوٍ شهيٍّ لخبز "المخلّع" الشّهير بمدينة بشّار وأشهى طعام في المنطقة، هناكَ أينَ أستطيع أخيرا ألّا أفكّر، من الغريب كيفَ تغدو الرّاحة استثناءً حينَ نعتقد بالتّفكير كحالة ذهنيّة اعتياديّة... في هذا المكان أستطيع الشّعور بالأمان ولا آمن على نفسي أن يختطفني جنّيّ أو إحدى المخلوقات الخرافية الّتي يتحدّثون عنها هناكَ في قصور

"القنادسة"[1] الطّينيّة، مغاراتُها ودهاليزها الّتي يحسنُ بها أن تكونَ منابرَ صبحا ومساكنَ أشباحٍ إن جنَّ عليها اللّيل، واحاتُها تبعثُ الحنين للزّمن الجميل وكثبانُها تستهوي المتسلّقين، دِهليز القصر القديم محفوفٌ بجدران الطّوب الّتي تُبقي من بنَوْها أحياء، هذا ما يراهُ زائرها لأوّل مرّة، لكن قلّةٌ قليلة رأت تلك الأمور الغريبة الّتي تحدث، هم لا يعلمون بأمر العجوز الّتي التقاها عمّي "محمّد" وسَقَتْه الماء خلف كثبان "البرقة" قبل أن تتلاشى كالسّراب، أو عن أمر ذاك المخلوقِ الّذي لاحقه، كان ذاك الشّيء الجاثم على أطرافه الأربع يشبه أخاه، لذلك ظنّ أنّ أخاه يطلّ عليه من فوق جدران "القصر القديم" ليمازحه قبل أن يكتشفَ أنّه كانَ في المنزل طول الوقت، هم لا يعلمون بكلّ الأمور العجيبة الّتي لقيها في الواحة! من الجيّد أن القليلين صدّقوا الأمر، فأيّ زيفٍ تصدّقه الجماعة يغدو حقيقة، أمّا حقيقة كهذه ستكون كابوسا لو صدّقوها، يُكذّب البشر كل الأمور المختلفة المثبتة الّتي لم يختبروها إلى أن يختبروا شيئا مختلفا؛ فيصدّقونَ بقيّة الأمور دونَ إثبات، كمْ هو صعبٌ حجزُ فكرٍ يتوسّط المنطِقَ الـمُطْلق والمنطقَ الـمُطلَّق؟

[1] القنادسة: منطقة أثرية توجد بالجزائر بمدينة بشار

لماذا لا يكفّ البشر عن الأمل؟

استلقتْ يسرى على سريرِها بمستشفى مصطفى باشا الجامعيّ مجدّدا من أجل فحوصات روتينيّة، كلّ شيء أبيض من حولِها ولن يكونَ من الغريبِ إن ظنّت أنها انتقلتْ إلى الجنّة في أولى لحظات نهوضِها من التّخدير، الأيّام الماضية تبدو كحلمٍ متكامل المعالم، كلّ ما تفعلُه الآن هو مناقشة تفاصيله، التّفاصيل هي الأمور البسيطة الّتي تحكم انطباعاتنا، هي التحلية بعد الأكلة الدّسمة وهي إغماضة العينين الّتي تلي اليوم الحافل، قبل أقلّ من سنة كانت حياتها تتسارع إلى النّهاية، قلبُها المريض أنهَكَها، سقطتْ ذاك اليومَ جثّة بلا حراك، صرختْ صديقتُها سلمى صرخة جعلتْ جميع من في البيت يسارعون إليها، سرعانَ ما انضمّت أمّ يسرى إلى حلقة العويل، لكنّ أباها كانَ أحكم، حملها وسارع بها إلى المستشفى بعدَ أن تحسّس في رسغها بقيّة نبض محتشم.

في المستشفى؛ هرعَ أبواها إلى الطّبيب المتابع لحالتِها، لقد أخبرهما أنّ هذا سيحدث لا محالة، ما الّذي ينتظرانه يا ترى؟ لماذا لا يكفّ البشر عن الأمل حتّى عندما يمدّ الموت إليهم يده ليصافحهم؟ هكذا تتغلّب الغريزة غالبا على عين العقل، ولو كانتِ الغلبة للعقل دوما لما استحققنا التّواجدَ على الأرض، حينَ

يخطئ المرء يغدو إنسانا، وحدَهُ الّذي يصرّ يُسمّى مخطئا... نظرا إليه وفي عينيهما ذاكَ الرّجاء العظيم بأن يُسمعهما ما يريح خاطرَيهما، بأن يُسمعهما أنّ ابنتَهما على ما يرام ولا تزال الأيّام أمامَها لتجد قلبا يناسب جسدها، كانت أعينهما شاخصة تكبّله ككمان تذبحُ أوتارَه ليطربَك، لكنْ كلُّ ما حصلا عليه هو لحنٌ حزين، كان حزينا جدّا لدرجة دعتْ لفقدان الأمل:

-للأسف لم يعدْ قلبُها يحتملُ كثيرا، حاولا أن تسعداها فحسب.

-أرجوك حاول فعلَ شيء ما!

-أنا حقّا آسف سيّدتي...

هذه الكلماتُ مألوفة جدّا! يضطرّ الأطباء لقولها مرارا، ولا أدري هل يخفّ تركيز مرارتها عند توزيعه على عدد الأيّام الّتي اضطرّوا فيها لقول ذلك، لماذا نحزنُ لموتِ الفتيانِ أكثر، إنْ كانَ الموتُ مجرّد موعدٍ تقدّم أو تأخّر؟ هنالك عدّة طرق للموت والعيش هو أحدها، قد يعزّينا أن نعتقد أنّنا بعدَ عقودٍ قليلة سنلتقي كلّنا في مكانٍ واحد.

بعد دقائق عديدة، أقبلتْ إليهِما سلمى مسرعة، البريقُ في عينيْها كانَ آسرا، بل كانَ مليئا بالأمل، حتّى أنّ الدّموع لم تجفّ بعدُ مِن عينيها، هذا يشبه شروقَ

الشّمس بين الغيومِ والأمطارُ لا تزال تهطل، نظر أب يسرى إلى صديقتِها سلمى وهو يعلمُ أنّه على وشك أن يسمع بشرى ما وإن بدا ذلك بعيدا إلى ما يقارب الاستحالة، وتساءل داخِلَه دونَ أن يشعرَ حتّى أنّه يتساءل: "هل هذا ما يسمّونه قوس قزح؟"

-لقد وجدت... لقد وجدتُ متبرّعا!

كانتِ الكلماتُ تنازعُ أنفاسَها المتسارعةَ لحظاتِها الخاصّة، كانَ انقلابا للكلمات على شرعية أنفاسها لضرورة الحماس، خرجا بتناوبٍ من حلقِها الضيّق الرّقيق.

-من؟ أين هو؟

-لقد استقلّ الطّائرة قبل مدّة وسيحضر بعد قليل!

كان الأمرُ غريبا جدّا، كيف لرجلٍ يستطيعُ المشي وركوب الطّائرة أن يقرّر التبرّع بقلبه؟ لا يهمّ! ففي النّهاية من يركب الطّائرة ليس رجلا ولا امرأة، ما يركبُ الطّائرة هو قلبٌ سينقذ حياة طفلتها الغالية يسرى.

تجربة الفاشلة

رحيلُ إيمان آذى الكثيرين، لم يكن عليٌّ أحسنَ حالا رغم أنّ الأيّام الّتي جمعتهما كانت قليلة.

"نتذكَّر الّذين آذونا ولا نذكر من بينِهم أعداءً، أولئك الّذين يسلبوننا أشياءنا أرحم بنا ممّن نهديها إليهم ثمّ يرحلون معها، الانتظار يعني الأملَ؛ وموتُ الأملِ يخمِد حياةً في قلبِ أحدهم، بينما كثيرا ما يمنحه الغضب والقهر سببا للمواصلة".

حصلَ أكثرُ ما كان يخشاهُ عليّ المولع بالجمال، لطالما خشي من لقاء شيء يعتبرُه ذروة الجمال الدّنيوي؛ فبعدَهُ كلّ شيء سيبدو في عينِه خرابا، شيءٌ بهذا الجمال يفترضُ به أن يلقّن جنبا إلى جنبا مع الشّهادة قبل مغادرة هذه الدّنيا، كان محظوظا حين اختصّه القدر بأجمل وأذكى وأنضج فتاتين يمكن له لقاؤهما وبائسا حينَ استدرجه لفقدان كليهما بطرق مختلفة، تخلّى عن أريام وأهداني إيّاها دونَ أنْ يدري أوّلا، ثمّ رحلتْ إيمان الّتي لم يستطع استمالتها إليه أساسا، لا تمكن معاندة القدر، سيفعل ما يريده في النّهاية، سيعرضُ عليك طرقا تخوض في متاهات كثيرة

لكنّها تلتقي كلّها في نقطة واحدة تسمّى المصير، أنت لم تختر شيئا، لقد اختار لك منذ البداية!

أيمكن للمرء أن يحبّ فتاتين في آن واحد؟ يمكن لقلب الرّجل أن يحبّ أكثر من ذلك، تفاصيلٌ صغيرة جعلتْهُ يختارُ إحداهما، اعتبر اضطرارَه للاختيار ظلما، لمَ لا يستطيع الاحتفاظ بحبّهما معا ما دام يملك قدرا كافيا لهما مجتمعتين؟ هل كانَ حمقا منه أن يختار فتاة تُحتضر أصلا؟ بل وقلبُها معلّق بغيره بغضّ النّظر عن دنوّ أجلها؟! الحبّ هو ذاك الأمر الذي يجدك أثناء بحثك عنه، ذاك الشعور الذي يجيد الاختباء ويدفعك للخروج طالبا إيّاه، يوهمك بعدم وجوده ثم ينشب حربته في قلبك فجأة، يتسلل بين النظرات ويتموّج مع الأصوات وينحلّ في رذاذ العطور، لا مفاجآت في غمراتِه ولا منطق في سكراته... من بين كل المرتفعات التي خشِيَها عليّ، كانتْ إيمان المرتفع الذي بإمكانه تحمل خطر السقوط عنه بعد أن يصل إليه، لم يفكّر في احتمال انهيار المرتفع فجأة أثناء تسلّقه... كلّ ما يفعلُه عقلُ عليّ الآن هو الصّراخ ريثما يصطدمُ بالأرض، الأفكار هي صرخاتُ عقولنا الّتي ترتفعُ كلّما ابتعدنا عنها، لن تكفّ إلى أن نسمَعها... إلى أن نستمع إليها!

استطاعتْ كلّ من أريام وإيمان رؤية الحزنِ في عينيه، ربّما لأن المرء يميلُ إلى رؤية ما يميل إليه، كانتا محقّتين في ذلك أيّا كانتْ خلفيّاتهما، إنّما لم يكنْ ذاكَ الحزنَ الّذي تدعو أسبابه للتّعاطف، ولأنّه يعلمُ ذلك لم يجرء على الحديث عن سرّه لأيّ كان كي لا يكون مثيرا للسّخريّة، كلّ الأحزانِ ثقيلة على صدور أصحابِها وإن كانتْ لا تعني لغيرهم شيئا، كانَ عليّ حزينا لأنّه استطاعَ زيارة معظم الأماكن ومصادقة الفتيان ومواعدة الفتيات ولم يعدْ يجدُ في الحياة ذاك التّحدّي الّذي ينشدُه، تردّدتْ داخلَه تلك الأبيات كتردّد أيّ من الأبيات الّتي يحفظُها حينَ تصادفُ الموقف الّذي يستدعيها:

"وينأى حين يدنو ما نريدُ إليه التّوقُ والشّوقُ التّليد

فكلّ الكلِّ موتٌ لازديادٍ وبعضُ الكلّ مقدارٌ يزيدُ"[1]

الملل أحد أنواعِ الحزنِ الّتي لا تستدعي تعاطف النّاس، كانَ الحزن يتلاشى في حضور أريام إلى أن لم تعدْ تفِ بالغرض ووجدَ بعدها إيمان الّتي أنعشت مشاعِره من جديد، ذكّرتْه بتلك التّجربة الفاشلة قبل سنواتٍ عديدة، بتلك الفتاة

[1] أبيات للكاتب

الّتي حرمتْه سعادة الفقراء وعلّمتْه كيف يكدّ ليصبِحَ غنيّا تعيسا، هو يعلمُ أنّ لا علاقة للسّعادة بالفقر ولا للتّعاسة بالغنا، هذه المرّة هي مجرّد صدفة لا أكثر.

قطرتا ماء

-ولماذا تريدُ الذّهاب إلى هناك؟

-أشعرُ أنّ قصّة أڤمد لم تنتهِ بعد، أصبح الأمرُ شبيها بالهوس، أريد اختراع شيء ما يليق بها.

-ألا يمكنك تركُ مخيّلتك تسرحُ أينَ شاءت بدلَ حصرها هناك؟

-لن تستطيعي فهمي ما دمتِ لمْ تأتِ معي، أردتُ الكتابة عن أمر مختلف وهذا بالضبط جعلني مثل البقية الّذين يريدون ما أريد، كيف يسعني الآن أن أريد أمورا لا يريدونها أو لا أرغب في أمور يريدونَها وأن أكون مختلفا في نفس الوقت؟ هل يمكنني التّفكير في شيء لم يفكّر فيه أحد من قبل؟ يحتاجُ الأمرُ سحرا شبيها بذاك الموجود هناك!

-لا بأس... سآتي معك بعد الدّوام، إن كنتَ تشعر بضرورة ذلك.

استطعتُ إقناع أريام بعد محاولات عديد تناولنا فيها طعام الإفطار في المطعم المقابل للإقامة الجامعية 8ماي، رغم أنّ قدومَها معي قد يكونُ مضرّا بما أنوي فعله، سائقو السيّارات يدرونَ أنّه للحفاظ على مسار السيّارة في الطّرق

الطّويلة عليهم تركيز أنظارهم على هدف بعيد في الأفق، أريام قد تكونُ إعلان المطعم الّذي قد يشتّت نظري لبرهة تفوتني فيها تفاصيل مهمّة، من حسنِ حظّي أنّ الشّركة الّتي أعمل فيها هناك بالمجر منحتني عطلة مطوّلة مقابل إنجاز أعمال التّرجمة من البيت والبقاء على اتّصال معها.

بعدَ أسبوع من نقاشنا، اصطحبتُ أريام إلى القنادسة، مررنا بالطّرق المحفوفة بالأراضي الزراعية والثّكنات العسكريّة ومحطّات البثّ الإذاعيّ، عند مدخل المدينة منجمٌ للفحم يعودُ إلى أيّام الاستعمار، هنا فقدَ صديقُ عمّي "محمّد" رأسه! أصيبَ عمّي على إثرها بصدمة لم يستفق منها إلّا بعد زمن طويل، لعلّ الضّعف الّذي خلقه فيه ذلك جعلَه محبّبا لدى المخلوقات الغريبة الّتي يقول أنّه صادفها.

بعدَ المنجم و"ديار الحجرة" مررنا بتمثالٍ لرجلٍ يعتمر قبّعة الأشغال ويدفع عربة خضراء بعجلات حمراء محمّلة بالفحم، مجرّد رؤية ذلك يثير فيك كثيرا من الحنين، فاجأتني أريام حين خاطبتني أوّل دخولنا:

-الهواء! لقد تغيّر الهواء، أصبح أنقى!

اتّسعت عيناها وأسفرت ملامحُها، داخلي تساءلتُ مفنّدا ما يقرّ به خاطري:

"كيف يتغيّر الهواء بين مكانين يفصل بينهما متر؟"

أحبّ سماع الغيبيّات غير أنّي لا أميل للتّصديق، لكنّ "عمّي مومن" الفلاح الّذي التقيناه لاحقا قال أمورا عبثت باعتقادي، تجوّلتُ مع أريام في الأرجاء، زرنا "العين" الواقعة بطريق القصر القديم، اغتسلنا بمائها والّذي يخرجُ من حنفيّات منحدرة وموجودة على محيط البناء الدّائري الّذي نزلنا إليه عبر درج صغير، كان البعد بينَ الحنفيّات متساويا ولم نجرأ على الشّرب منها لعدم درايتنا بصلاحيّة مياهها، تجوّلنا بين أروقة القصر المبني بالطّوب، بعض دياره مأهولة وأخرى انهدمتْ بعدَ هجر أصحابها إلى وسط القنادسة، داخل القصر توجد مقبرة مهجورة كما يوجد ضريح الوليّ الصّالح "سيدي بن بوزيّان" الّذي تشتهر به المنطقة والمتّصل بالمسجد، غيرَ أنّه لا يعدو كونَه مكانا للسّياحة من تلك الأماكنِ الّتي تعني الزّمن القديم بحقّ بفضل هندستِها وروائحها وأثاثِها... الباب قليل الارتفاع ويبدو مظلِما من الخارج، وعندَ ولوجِه يحسُّ المرء بانخفاض مستوى الأرضيّة مقارنة بالخارج، لونٌ أخضرٌ فاتح وإسمنتُ الجدران تحتَ الطّلاء متعرّج على شاكلة معظمِ الزّوايا، الحصيرُ أحمرٌ يتوسّطه منبرٌ أقدمُ من معظمُ الأحياء اليوم، صلّيتُ هناكَ ركعتين والله وحدَه يعلمُ كم كنتُ خاشعا في الهمسِ بدعائي الّذي لا أذكر لي أمنية فرّتْ من بينَ دفّتيه.

تجوّلنا بعدها في الواحات الّتي تليه وتسلّقنا الجبال الرّمليّة الصّخريّة، فعلنا كلّ ما يلزم فعله لنشعر أنّنا استمتعنا بوقتنا كما يجب... بعد عمر من التّجارب، أدركنا أنّ المتعة ليسَت أمرا نسعى إليه بل هي أمرٌ يرافق السّعيَ نفسَه، لذلك مُتعتنا بدأت بمجرّد اعتمادنا فكرة هذه الزّيارة واستمرّت معنا إلى هنا، التلذّذ بالتّفكير لا يفسدهُ سوى التّفكير بواقعيّة! عدنا متعبيْن إلى غرفتينا، بالنّسبة لي كنتُ مكتفيا ولا توجدُ طريقة لطيفة لقول ذلك لها، لو قلت ما عليّ قوله لخسرت ثلث العالم ولو قلت ما أرغب فيه لقتلني الثلثان المتبقّيان، ليس بوسعي أن أقولَ لها:

"أنا متعبٌ اليوم ولا يمكنني محادثتك على الهاتف."

أقولُ هذا لأنّي أعلمُ أنّها ستتّصلُ بعد لحظاتٍ كما تفعلُ دائما، مهما تميّزتِ الفتيات، جمعهنَّ أمران مشتركان دوما في تجاربي القليلة: كلّهنّ واثقات من أنّ عيونهنّ جميلة، وكلّهنّ يعشقنَ الحديث الهاتفيّ في كلّ حين! كنتُ أتساءل دائما ما الّذي يقوله العشّاق عندما يتحدّثون إلى بعضهم لساعات واليوم أطرح السّؤال ذاتَه بعد أن أفرغ من حديثي معها:

"ما الّذي كنّا نقوله خلال السّاعات الماضية؟"

أستظهر ما بدماغي ولا أحصل إلّا على بعض الشّتات الّذي يتمزّق كلّما حاولت خياطة أجزائه إلى بعضِها، أليس من الوقاحة أن تغدو ذكرياتُ الأشخاص الأقرب منّا بهذه الهشاشة؟

كنّا نتحدّث إلى أن يغلبَ أحدنا النّعاس، وفي المرّاتِ الّتي كانَ يهزمُها قبلي كنتُ أتحدّث إلى تلك الفتاة الأخرى الّتي غدتْ صديقة مقرّبة نوعا ما، تلك المجهولة المتخمة بالنّدم الّتي أضافتني، كانَ حديثي معها في الوقت الّذي أجهل كلّ شيء عنها فيه مخاطرة منّي، صحيحٌ أنّ حديثَنا جرى دوما مجرى أيّ حديث بين صديقين لكن سيكون لأريام رأي آخر لو علمتْ بهذه العلاقة الّتي تغدو متوطّدة أكثر فأكثر، ما جذبني إلى مصادقة هذه المجهولة في الواقع نُضجُها وحِرصُها على معرفة مستجدّاتي ونصائحُها القيمة الّتي جعلتني أستنصِحُها في أمورٍ شتّى حتّى فيما يتعلّق بأريام، كانتْ هذه المجهولة من اقترحَ عليّ زيارة القنادسة إن كنتُ أحتاجُ فعلا إلى مكانٍ غريب وجميل في آن واحد.

ذهابُنا –أنا وأريام–مرّة إلى هذه البلدة الصّغيرة السّاحرة جعلنا نرغبُ في الذّهاب إليها في كلّ مرّة، قالتْ لي أريام:

–القنادسة... أظنّها أخفض نقطة على اليابسة!

-آها... الحمد لله أنّ الطوبوغرافيا ليست مبنيّة على ظنونك بل على وسائل القياس والأقمار الصناعيّة.

ضحكتْ وقالتْ:

-أ لن تسألني عن حجّتي؟ أم أنّك تعلم أنّي سأقنعك برأيي سلفا!

-حسنا حسنا، ما حجّتك أيّتها المتذاكية؟

-أحم...

صمتت قليلا كأنّها ترتّب أفكارَها لتقودني شيئا فشيئا لمقاسمتِها منظورها ثمّ قالت:

-ينحدرُ الماء إلى المكان الأكثر انخفاضا، صح؟

-نعم... ثمّ؟

-وجسمانا مكوّنان من أكثر من سبعين بالمئة من المياه، صح؟

-امم نعم، ثمّ؟

–هذا كلّ شيء! هذا يفسّر عودتنا دائما إلى هذا المكان في كلّ مرّة، كأنّنا قطرتا ماء تتبعان السّبيل الأكثر انحدارا!

أعجبني تفكيرها جدّا، لم أصرّح بذلك لكنّي داخلي أردفتُ:

"معك حقّ، مهما سافرنا في الزّمن نعود إلى الأماكن الأكثر عمقا في قلوبنا"!

لكنّي أجبتها معاندا ألمعيّتها الواضحة:

–هيّا نذهب إلى "السويقة"، متأكّدُ أنّها ستكون البقعة الأكثر انحدارا في هذه الأرض المنحدرة.

قلتُ ذلك لعلمي بشغف النّساء عموما بالأسواق الغنيّة بالملابس والأواني، كانتِ "السويقة" سوقا أسبوعيّة تقامُ يوم الجمعة، بـ "البلاصيطة" المقابلة لمسجد "عمر بن عبد العزيز" لكنّها امتدّت متواصلة إلى السّبت بعد الإقبال عليها حتّى من خارج البلدة، أمّا عنّي فكنتُ أكتفي بقطعة من "النّوڤة" الّتي تباع فيه في أشدّ أيّامي سخاء!

اصطحبتُ أريامْ لزيارة "خالتي فطيمة" السّاكنة بمنطقة "لّاري لَّولى" وهي امرأة معروفة هناك بأعمالها الخيريّة، كانتْ سعيدة جدّا بقدومنا، البريق في

عينيها حين تضحك ينبئك بذلك، قدّمت لنا بعض الحلوى المتبقّيّة من عرس ابنتِها وبعض "الكوكاو" مع الشّاي "القندسي" المضاف إليه عشبة "الشّيبة" طبعا، بعدها تجاذبنا أطراف الحديث، كانَ الوقتُ يمرّ سريعا، أخبرتنا عن بعض الغرائب الّتي حدثتْ هنا، بعضُها رأتهُ شخصيّا والبعض متواتر عن أشخاص آخرين، في الأخير نصحتنا بلقاء "عمّي مومن" الّذي يعرف كثيرا عن خبايا المنطقة بحكم أنّه استوطن مناطقَها المهجورة، أين يحلو للأشباح–حسب زعمها– الظّهور، وافقنا على أخذ موعدٍ قريبٍ معه بعد أن تقوم بتدبيره، بعد ذلك عدنا إلى منزلينا مجدّدا.

صاحب القلب

يومها أعد المستشفى يسرى لإجراء العمليّة، كلّ شيء يحدث بسرعة الآن، ليس غريبا أن يشبِّه النّاسُ الأملَ ببصيصِ الضّوء المنبثق من خرم صغير أو باب ما، لكليهما القدرة على غمرنا فجأة... انتظر والداها قدومَ القلب الّذي قد يعيد الحياة إلى ابنتهما، جسدُها المنهك قد لا يتحمّل العمليّة الجراحيّة رغمَ مطابقة القلب له، لكن لا يعقَلُ أنّ يسرى قاومتْ كلّ هذا الوقت وصمدت من أجل أن تموتَ الآن... كفى! هذا مجرّد كلامٍ فلسفيّ جميل، الحقيقة أنّنا قد نبتسم في وجه المصائب وننهار أمام وخزة شوكة، إنّما نقول كلماتٍ جميلة لأنّنا نحفل بالأمل لعلّ يطيبُ له التّعمير طويلا بيننا، لم تعتقد يسرى أنّها ستحصلُ على قلبٍ كهديّة من كاتِبها المفضّل، بل أنّها لم تتوقّع حصولَها على نسخة من كتابه حتّى. قبل بضع ساعات... قبلَ أن تنهار، اتّصل بها معتذرا منها على سوء اللّقاء الّذي جمعهما في حفلة توقيع كتابه، سألتهُ ذاكَ السّؤال الّذي تمنّت طرحه عليه:

هل ما كتبته في قصّة "أحمد وميلين" حقيقي؟

طرحتْ السّؤال ثمّ فقدتْ وعيَها ونقلت إلى المستشفى على عجلة، كأنّ ما أرادتهُ حقيقةً هو أن تسأل فحسب، حينها شعرت أنّها أنهَتْ ما واصلت العيش

من أجله، كانتْ تعضّ البطّارية لتطلق بقيّة الشحنة التي فيها، لم تنتظر يسرى جوابا، ربّما لأنّنا نُعبّئ الأسئلة بما نشاء لكنّ أجوبتَها أحيانا تأتي متمرّدة على إرادتنا وعلى ما ننتظره منها، أو بالأحرى على ما نتمنّى سماعه منها.

-لقد وصل!

قالتْ ذلك سلمى بعدَ أن أنهت المكالمة، وقف الجميعُ منتظرينَ حضور صاحبِ القلب... بعدَ لحظات، وصلتُ إلى الجناح الّذي به عائلة يسرى، لم يدرِ أيّ منّا ما عليه قولُه، كلّ ما فعلتُه هو تقبيل جبهة أمّها؛ وفي الحين أمسكتْ يدي تودُّ تقبيلَها لأنّها لم تعرف كيفَ تشكرني، سحبتُ يدي وقلتُ:

-لا عليك يا أمّاه...

لم أشعر أنّ كلمة "أمّاه" لائقة بهذه الأمّ الشّابّة وكأنّها لا تفوقني إلّا بسنوات قليلة، لعلّ الحزنَ جعلَها تبدو أكبر وإلّا لربّما بدونا أقرانا، قهَرني منظرُ عينيها اللّتين تفيضان بالدّموع، أمّا أبوها طويل القامة فلم يكن أحسنَ حالا، كان في غاية التأثّر يحبسُ دموعَه المتجمّعة، بدت مُقلتاه كمسبحين صغيرين، أدار رأسه ومسحَهما، لقد كان رجلا ذا كبرياء وكرامة، أظنّني أوّل شخص استطاعَ أن يقدّم له صنيعا يعجز عن تأديته، لو يعلم المتبرّعون أنّهم يحيون عائلات بأسرها وليس شخصا

واحدا فقط، قاطعتُ حيرتَنا فيما يجب أن نقولَه وجلستُ إليهما بينما أحدّثهما في الأهمّ.

-لقد تدبّرتُ جميع الإجراءات بمساعدة أحد الأطبّاء الّذين أعرفهم، وتأكّدتُ من مطابقة القلب لجسد يسرى، ستوقّعان بعض الأوراق الآن لكي تتمّ عمليّة زرع قلب لها، لكن هنالك شرطٌ ضمّنتُهُ في الوثائق...

-اطلب ما تريد يا بنيّ...

-لا أريدُ أن تعرفَ يسرى شيئا عن المتبرّع، اطلبوا منها أن تهتمّ بقلبي فحسب!

في الواقع، لم أعلمْ سبب طلبي هذا أو ربّما تعلّمتُ هذا من رؤية المسلسلات المدبلجة... شرحتُ لهما أنّه لشخصٍ عزيز عليّ فحسب، لم يمتلكا رفاهيّة التّفكير أو الاستفسار أكثر، وافقا في الحال ودخلتْ يسرى غرفة العمليّات... تمّتِ العمليّة في النّهاي، وخلالَها أحسّت يسرى بصعقة خفيفة للتّيّار الكهربائي، وهذا ما أكّده لها طبيبُها في وقتٍ لاحق، يسرى لم تنجُ كما ظنَّتْ!

حين تتغير

أحسّ عليّ بذاك الفراغ القاتل، لم يعدْ عملُه كطبيب يملأ يومه تماما، أرادَ فعل شيء ما، البحث عن شيء ما، في الواقع هو يدري ما هو ذاك الشّيء غير أنّه يتجاهل الحقيقة، هو يماطل رغباته، فبدل أن يرفضَ موعدا مع الحقيقة ضربَ لها موعدا بعد مئة سنة مبقيّا إيّاها على وضع الانتظار، حينها سيكون قد أصبح عظاما، أحيانا نماطل لكي نشعر دائما أنّنا ننتظر شيئا ممكنا... لكيلا تتمرّد المشاعر داخلنا.

شعر عليّ بشوقٍ كبير إلى أريام، شوقٌ دعاهُ في لحظة جنون إلى طلب الانتقال إلى مستشفى بشّار للعمل لبضعة شهور هناك، تمّت الموافقة على طلبِه الغريب، فعادة ما لا تروق الأطبّاء فكرة انتقالِهم للعمل في الصّحراء... ظنّ أنّه نسي أمر أريام قبل أن يداعبَ أنفَه عطرها في الأيّام الماضية، عاد به إلى أجمل اللّحظات، رسمَ في مخيّلته ابتسامتها وحرّك الهواءَ حوله ليجاري اهتزازات صوتِها الحنون في مسمعيه، لكنّه صار يعلمُ الآن أنّها لم تعدْ له، هي تستعدُّ لخطبتنا ولن يطول الأمر على الأرجح حتّى نتزوّج.

جالتْ في رأسه أفكارٌ كثيرة سرعانَ ما نسيها، تلك الأفكار الّتي ينحت منها المبدعون أعظم أعمالهم حين يدركون أنّها الأفضل ويبدؤون تقييدها قبل أن تهرب، هو يحنّ إلى العزيزة إيمان أيضا، في هذه الأثناء تذكّر تلك الفتاة الّتي تبرّعت لها إيمان بقلبها، لقد كانَ عليّ من سهَّل كلّ الإجراءات ليصلها القلب ويزرع في أسرع وقت، في الواقع كانَ يتوق لرؤية قلب إيمان ينبض داخل شخص ما... كأنّ إيمان لم تمت، تساءل عليّ:

"ترى هل نجحتْ في الصّمود؟"

فجأة أصبح الجوابُ مهمّا جدّا له، إيمان لم تكنْ مجرّد شخصٍ يحبّه بل كانتْ فلسفةَ حياة، كانتْ طريقا متفرّدا، حين تمضي في الطريق تغيّرك وتغيّر من طريقتك، وحين تتغير أنت ستغيّر ما تلقاه حين تمضي في بقية الطرق ليناسب طريقتك، هل تمر بالأشياء الساكنة أم تقف بينما تمرُّ بك الأشياء؟ هل يشكّل ذلك فارقا مادام كلاهما تقدما؟ ظنّ عليّ أنّه بدل انتظار أن تلاقيه الأيّام بيسرى بإمكانه السّعي للقائها... إن كانتْ قد نجتْ، قرّر ذلك وهو لا يدري إن كان تقدُّمه نحو الأشياء سيقدّم شيئا غير الزّمن.

سهو متعمّد

"خالتي ديهيّة" ليست ودودة جدّا، لكن علينا مسايرتُها لكي تكمل الحكاية لنا، إذا أغضبناها أو أبدينا أيّ بادرة للملل أو التّبرّم قد تختفي ببساطة، نهشتْ نهشة من كسرة "أغروم بولحوال" الّتي بيدها، رائحة التّوابل والأعشاب الصّحيّة تخرج من بين شقوقِه قويّة، حشت فمها بقطع كبيرة تواليا وراحت تمضغها على جانب واحد من فمها، بدا شِدقها ممتلئا وكأنّها تمضغ كرة غولف، كانتْ تنظر إلينا بغرابة، عيناها تعكس حُمرة النّار ولا يرمش لها جفن بينما تستمرّ في المضغ فحسب، خِلنا أنّها لن تتحدّث اليوم... أخيرا تكلّمت والأكل يتطاير من فمها:

-ماذا حدث في قصّة أَڤمَد؟ بمَ أخبروك؟

حينها أعدتُ قصّ الجزءَ الّذي رواه لي أحمد وبعده أريام عليها محاولا الاختصار، ضحكتْ حينها بهستيرية ثمّ جحظتْ عيناها وهي تصرخ في وجهي:

-أهذا ما تظنّه فعلا قد حدث؟ أتظنّ حقّا أن حاصد اللّيل كانَ مهتمّا بالسّيطرة على العالم؟ لماذا ذكرت الفصل الخامس عشر، ألم يخبروك أنّه غير موجود؟

طرقتْ كلماتُها ذهني بقوّة، حقا! لماذا أراد حاصد اللّيل السّيطرة على العالم قبلَ أن ينتهي به الأمر مصلوبا على شجرة البان العملاقة كأضحية لعودة العفريت موايّ؟ كنتُ أظنّ أنّ أريام أخطأت العدّ حين روتْ لي بقيّة الأجزاء دون ذكرها الفصل الخامس عشر، لكنْ يبدو أنّ الأمر كان متعمّدا، الفصل الخامس عشر غير موجود حقّا! حينها قلتُ لها يا خالتي...

-"يخْلي فّادَكْ!"

قاطعتني وهي تمتم بكلماتٍ قبائليّة لم أفهمها، ثمّ قالتْ:

-اسمع !اسمع ولا تتكلّم:

الفصل الخامس عشر

أطلّ بارادوس بعينه العملاقة من خلال بوّابة العالم الخامس "عالم النّدم" الّذي يسكنه، ثمّ جلسَ ينتظرُ ضيفَه الّذي يوشك على الحضور.

العفريتُ موايَ أقدمُ مخلوقٍ عرفتْهُ الكائنات في العوالم الوسطى، لكنّه لم يكن الأقدم على الإطلاق، قبلَهُ بقرون طويلة، وُجدتْ المخلوقات الجبّارة، كانتْ هذه المخلوقات قويّة جدّا، تعمّر طويلا ولا تصاب بأيّة أمراض، عاشتْ بقوانين صارمة تحكمُها، لم تعرف المشاعر يوما ولم تحسّ بشيء منها، لذلك كانَ شعورُ أيّ منها بذلك سيعتبر خطرا يهدّد الأمن المبنيّ على القوانين الواضحة، كان تكاثُرها هو الآخر مقنّنا بأوقات وخوارزميّات لانتقاء الأفراد الّتي تتزاوج، بهذا الشّكل كانتْ تضمن هذه المخلوقات إنجاب الأفضل والأسلم والأخدم لغريزتها في البقاء والاستمرار.

لكنّ طفرة حدثتْ حين نظر إينيل إلى تيثريت وشعر بذاك الشّيء، إينيل كانَ أوّل رجل يشعر بالحبّ على وجه الأرض! قبل ذلك كانَ يشعرُ أنّه بخير، كانتْ الأيّام متماثلة، من لم يخرجْ يوما من الجحيم سيظنّ أنّ الجحيم هو الحياة، يكفي أن يتذوّق قطرة من الجنّة حتّى توقظ النّهايات الحسّيّة فيه، ويذوق كلّ لحظة حميمه

ولظاه، أحبّت تيثريت بدورها إينيل، إلى هنا كانَ كلّ شيء على ما يرام، إلى أن جاء يوم الانتقاء، اليوم الّذي تُختارُ فيه الأزواج الأنسب وراثيّا بغضّ النّظر عن أيّ مقاييس أخرى، لم ترَ الطّبيعة أنّ تيثريت وإينيل مناسبان لبعضهما، بل اختارت لهما أزواجا آخرين.

عندئذ اتّفق إينيل وتيثريت على تقديم طلبٍ إلى الملك ليغيّر هذا الخيار، وبالمقابل سيقدّم له إينيل ثمرة "الحياة الثّانية" الّتي يملكُها، وهي ثمرةٌ يملكها كل واحد من المخلوقات الجبّارة، بإمكانِها إعادة بعث روحِ كلٍّ منهم بعدَ موته، لا يمكن أخذُها عنوة بل يمكن إهداؤها عن طيب خاطر فحسب، كانَ العرضُ مغريا، قبِل الملك عرضَ إينيل وتيثريت، حينئذ سلّم له إينيل الثّمرة، استلمَها الملك وفي الحين أمرا بإعدامهما، لقد شعرَ أنّ هذا الشعور الّذي دفع شخصا إلى التخلّي عن حياته سيكونُ معديا، ومؤذيّا للمقصد الأسمى لجنسهم... الاستمرار.

كانَ ذلك أوّل حكم بالإعدام على الإطلاق، البدَعُ تحدث بعدها البدع تواليّا، في لحظة ما لام إينيل نفسه على بدعة جميلة كالحبّ، لكنّ تيثريت أخبرتهُ أنّها ليست نادمة على الإطلاق:

-المتشابهون لا يعيشون بؤسهم الّذي يحيط بهم.

-والمختلفون يعيشونه بينما يحيطون بجوانبه!

-لا أريدُ منكَ أن تندم على شيء، الجهلُ أطول عمرا، لكنّ الإدراك هو العمر.

كانَ إينيل مقتنعا تماما بما تقوله تيثريت، لكنّه لم يكن مكتفيا منها فحسب، أراد أن يعيشا معا، أن يجرّب كلّ هذه الأمور الّتي يدعوه إليها الحبّ، كاحتضانها بقوّة مثلا... نسي الملك أنّ تيثريت تمتلك ثمرة الحياة الثّانية، في هذه المرّة قامتْ بأمر غير مسبوق، اقتسمت ثمرتها مع إينيل، إنّها بدعة أخرى من بدع الحبّ! المشاركة والإيثار... في الحين، بدأ إينيل يرى قوّة هذا الشّعور الجديد، أدركَ أنّ بإمكانه صنع المعجزات والخوارق.

عند موعد الإعدام، أكل كلّ منهما الشّطر الّذي يملكه وقُتلا معا، التقم الملك ثمرة إينيل وألقاها في فمه وراح يمضغها، لكنّ ذوقها كان سيّئا بحيث لم يستسغه وبصقها من فمه، لأوّل مرة تُلقى بذور هذه الثّمار على الأرض وتعاملُ بهذه الوقاحة، كظمتِ الثّمرة غيظَها واندسّت في التّراب لزمن طويل، ثمّ راحتْ تنمو بسرعة غريبة، إلى أن غدتْ شجرة بانٍ عملاقة.

مرّتِ الأيّام وهي تنتظرُ مكانَها لحظة الانتقام، وحين شعرتْ بأنّها صارتْ لا تُقهر، أغارت على أرض الجبابرة والتقمت الملك ماضغة أحشاءه وأطرافه ككلّ، ثمّ بصقتْ عظامَه تماما كما فعلَ بها، حينها تناثرتْ بعضُ عظامها على بعد آلاف الكيلومترات وغاصت في عمقِ إحدى البحيرات الّتي نمتْ من حولِها الحياة، واستوطنتْها خلال القرونِ الّتي تليها الزّواحف والأفاعي خصوصا.

إينيل وتيثريت بُعثا من جديد بعد آلاف السّنين بفضل ثمرة الحياة، لكنّهما لم يكونا هما حقّا، بعثا في عوالمَ نشأت بعد اندثار حضارة الجبابرة، هامَ إينيل في الأرض باحثا عن تيثريت، بينما لم تجد تيثريت على هذه الأرض غير العفريت الأوّل مواي الّذي رحّب بها، وحكى لها ما رآه منذ أن خُلق، لم تكنْ تعرفه بالقدر الّذي تأتمنه به، لذلك حينَ سألها، أخبرتهُ أن اسمها الفزّاعة "ترڤو"، كان شكلُها الّذي بُعثتْ به مختلفا جدّا، ، إينيل بدوره كانَ قابعا عند البوّابة الزّمكانيّة الّتي يمرّ عبرها الأموات، منتظرا عودة تيثريت، راقبهُ مواي لزمن طويل؛ وحين رآه صامدا هناك لعدّة قرون، ظنّ أنّه حارس البوّابة، لذلك سمّاه "النّاسكَ حارسَ البوّابة".

لاحقا تعرّف كلٌّ من النّاسك والفزّاعة على بعضهما بصعوبة، شكلاهما مختلفان وحجماهما أصغر ممّا كانا عليه في الحياة السّابقة، ربّما هذا بسبب تناولهما نصف الثّمرة فحسب، أمّا مواي كانَ ينتظرُ قدومَ أخٍ له يدعى أولمك.

بعدَ أن جاء أولمك إلى هذا العالم، أخبرَهُ مواي بأنّ العالم لن يصلحَ بتواجدِ قوّتين بحجميهما تحكمانه، لذلك طلبَ منه الاختفاء في جزء من العالم، سيتنازلُ له عنه، وافقَ أولمك شرطَ أن يجعل مواي الفزّاعةَ جزءا من عالمه لأنّه أغرم بها بشدّة، لم يكن على مواي إلّا الموافقة، اضطرّت الفزّاعة وإينيل مجدّدا للافتراق، إلى هذه اللّحظة هما لا يملكان القوّة الكافية لمجابهة العظيم العفريت الأوّل مواي، لذلك خضعا لحكمه الطّامح إلى إبقاء العالم بسلام.

شعرَ مواي بضرورة وجود عفاريت أخرى تحافظ على سلام العالم، فإدراكه مهما اتّسع قد يتعرّض للفتور في لحظة ما، قد يستغلّ أحدهم رمشة عينِه الّتي تتكرّر كلّ ألف عامٍ ويقوم بشيء ما، لذلك قرّر التزاوج مع معظم الكائنات، فتزاوج أوّلا مع مخلوقات قويّة أتت بعده وأصبحوا سبع عفاريت عظيمة، ثمّ بعد دهر من ذلك تزاوج مع معظم الكائنات فأنجب عفاريت الماء والهواء والرمال والرياح و.... عندئذ قرّر الاندثار ومَنَحَ قوّته للعفاريت العظمى.

في العالم السّفلي الّذي يحكمُهُ أولمك، كانتْ تيثريت أو الفزّاعة حاملة من إينيل، بعد مدّة لم يعد حملها يخفى على أحد، حين اكتشف ذلك أولمك جنّ جنونُه، أجبرها على الاعتراف بما حدث، لم يكنْ بوسعِها إلّا الكذب والادّعاء أنّ أب أبنائها هو العفريت موايّ الّذي اندثر وتحوّل إلى تمثال بأرض القيامة، خشيتْ على إينيل الّذي لم يعد يملك تلك القوّة الّتي يجابه بها شيطانا كأولمك، جنّ جنونه... زجّ بها في السّجن أين أنجبتْ "الدّمى السّاحرة"، عرّضها للعذاب لسنين طويلة، إلى أن حلّ اليومُ الّذي جاء فيه ذاك الزّائر "إينيل" والّذي أصبح معروفا بالنّاسك حارس البوّابة، كانَ أولمك يعرفه مسبقا، لكن لا أحد يعرفُ حقيقته ومن هو بالضّبط.

-ما الّذي يحمل النّاسك على زيارتي؟

-الحقدُ المنطلقُ من قلبك صار عبئا على الطّبيعة، البوّابة تشتكي!

-وما الّذي يمكن فعله حيال ذلك؟

-عليك تصريف الغضب الّذي يسكنك!

-أتظنّني كنتُ مانعتُ لو استطعت؟ ذاك الغدّار موايّ، أتمنّى لو أتيحت لي فرصة ثانية للقضاء عليه!

-في الواقع توجد طريقة لإعادته!

أثلج الكلامُ الّذي قاله النّاسك إينيل مسامع أولمك، سأله في لهفة بالغة:

-كيف؟

حينَها شرح إينيل لأولمك ما عليه فعله، كانتْ خطّة في غاية الإحكام، سيطلقُ إينيل سراح الفزّاعة بعد كسر "أصفاد النّاب"، ثمّ يهرّبها من خلال باب العالم السّفلي الّذي أضحى بدون حراسة بعد نفي حارسه العفريت آبانوخ، سيعطيها كتاب التّعاويذ أيضا، ثمّ سيذهب إلى أريناس ليقنِعها بضرورة تهريب حاصد اللّيل الّذي قهره مواي سابقا بمشاركة أولمك، أخيرا سيقوم أولمك بإرفاق حاصد اللّيل بالدّمويّة ددّان، ددّان لم تكنْ سجينة بل إينيل وأولمك جعلا حاصد اللّيل يظنّ ذلك كسبا منها لثقته وجعلِه يتبعُ الخطّة الّتي يريدانها منذ البداية، لم يكن حاصدُ اللّيل إلّا بيدقا مغفّلا، أراد امتلاك القوّة للانتقام من أولمك فحسب! الجميعُ ظنّ أنّه يريد الاستيلاء على العالم... في النّهاية! كلّ ما كانَ يقومُ به أقمد هو محاولة بعث مواي ليجابه أولمك، لكنّه كان يقومُ بما يريده أولمك منذ البداية: إعادة بعث مواي!

إينيل وتيثريت بعد أكلهما الثّمرة بقيَ منها عودُها الّذي صُنعَ منهُ لاحقا مزمارٌ سحريّ لقطٍّ يُدعى سُمّان... جسد تيثريت هو الآخر لم يندثر كلّيّا، بل بقيَ بؤبؤها مرميّا في مكانٍ مهجور، إلى أن عثرتْ عليه السّاحرة أريناس وبدأت استعماله لأغراضها السّحرية، بلّورة عين تيثريت كانتْ ذات إدراك واسع جدّا!

عمّي مومن

"خالتي فطيمة" أعدّتْ لنا –أنا وأريام–موعِدا مع "عمّي مومن" الفلّاح المتعلّق بأرضه كثيرا، اتّخذ جزءا معزولا عن البقيّة واختلى بالطّبيعة، كلّ ما يحكيه متعلّق بها، حتّى أنّه فصّل حروف كلمة "حكمة" على أنّها سبل كسب المال اجتمعت في كلمة واحدة، وأوّلها حرث ثمّ كسب ثمّ ميراث ثمّ شيء آخر لا أذكره... دعانا عمّي مومن إلى واحته المحفوفة بالأعشاب والنّخيل، كنتُ مدركا بأنّ الأفاعي والهوام تحبّ هذا النّوع من الأماكن لذلك سألته:

–هل سبق أن لدغتك أفعى هنا؟

أجابني:

–نعم، ثلاث مرّات فقط!

يا إلهي... ثلاث مرّات!؟ وفقط؟! لا بدّ أنّه ينوي القضاء علينا بسلوك هذا الدّرب الّذي لا يمكنك رؤية موضع قدمك فيه، غيرَ أنّه استدرك الموقف حين رأى قلقَ أريام الشّديد:

–لكن لا تقلقوا، الأفاعي هنا غير سامّة عموما.

عموما!؟ وماذا عن تلك المرّات الّتي تخالف العموم؟ تمسّكت أريام بي بشدّة، لم تكن تعلمُ أنّي أرتجفُ بشدّة من الدّاخل، كنتُ على وشك الهرب والصّراخ، أعاني من فوبيا الزّواحف منذ طفولتي، ربّما عليّ السّقوط في الماء للادعاء أنّ البلل ناتج عنه في حال بللّت سروالي... واصل عمّي مومن سرده لأحداثه "المشوّقة" عن الأفاعي، أقصد المشوّقة له، فعلى ما يبدو لا أحد يشعر بالحماس هنا غيره! روى لنا قصّة صديقه الّذي التقط في "السّاقية" سمكة طويلة ثمّ اتّضح أنّها ثعبان من نوع ما...

-أريام، ما رأيكِ في العودة؟

-نعم تبدو فكرة صائبة.

اعتذرتُ من عمّي مومن من أجل الانصراف، قال دونَ أن يكلّف نفسَه عناء الالتفات إلينا وهو منهمِكٌ بإعداد بعض الأغصانِ اليابسة:

-لا بأس، لا عليكما، لكن كونا حذرين لمواطئ قدميكما حتى لا تتأذّيا كثيرا.

نتأذى كثيرا؟ يا إلهي... "أين أنتِ يا أمي؟" ألا ينوي أن يعيدنا إلى الطّريق الرّئيسية؟ أنا أتحسّس سروالي الآن ويبدو جافّا.... إلى الآن.

-أ لن تعيدنا يا عمّي؟

-آه... آاا لا أستطيع، سأتأخّر إن فعلت ذلك، لكن لا تقلقا، إن حدث أيّ شيء فاصرخا وسآتي في الحين لكن اصرخا بقوّة فأحيانا لا أتمكّن من سماع شيء حين أكون منهمكا في العمل.

التفتُّ إلى أريام الّتي ملأ الرّعبُ عينيها وهي تتمتم بصوت مرتجف:

"يا يمّا واش جابني ..."

قالتها هكذا ممدّدة حرف النّون بقدرِ امتداد الخوفِ في صدرِها.

-يبدو أنّنا عالقان هنا يا صغيرتي!

-رأيك "التّالف" من علّقنا! أين كان عقلك؟

-نائما بجوار عقلك!

استدرتُ مجدّدا كي لا نفقد أثر أملنا الوحيد في الخروج بخير من هنا، كنّا نسير خلفه مباشرة وأنا أتمتم مكرّرا كالتّسابيح: الله "يجيبهالك" يا خالتي فطيمة..."

قَصّة شعر

وصلنا إلى كوخ مبنيّ من الطّين وجريد النّخل وسعفِه، كان البردُ قارسا سرعان ما أخرج من كوخه المكتظّ بالأغصان بعضا منها إضافة إلى تلك الأعواد الرّفيعة الّتي جمعها خلال الطّريق، فرش الأغصان الرّفيعة أسفل مكان محاطٍ بالحجارة الّتي اسودّت من أثر النار، وفوقها وضعَ أغصانا ثخينة ثمّ أشعلها، كنّا نتأمّلُه بإعجاب وتعجّب، بشرتُه مسمرّة تلكَ السّمرة الّتي تسبّبها الشّمس وعلى وجهِه شاربٌ قدّرتُ أنّه لم يهذّب منذ شهور، حاجباهُ غليظان بشكلٍ يكادُ يغطّي عينيه المنكمشتين إلى الدّاخل، جسمُه نحيفٌ لك منتصب الظّهر، من الواضح أنّه قويّ البنية حتّى أنّ التّجاعيد لم ترَ أن تزورَه بعد كحال أقرانه، على فمه ابتسامة لا تكادُ تُرى تتوسّط الحكمة والدّهاء، أدركتُ أنّه من أولئك الأشخاصِ الّذين يؤمنون بتميّز عملِهم وحينَ تقفُ أمامهم طلبا لحاجتك تشعُرُ بالفرق الشّاسع بينك وبين محترفين أمثالِهم، تماما كما يحدثُ عند طلب خدمة الطّبيب في عيادتِه أو السّمكري وهو يعدّل أنبوب الغاز في الفناء الخلفيّ أو المطبخ، بعدَ صمتٍ قصير تكلّم قائلا:

-التفّوا حول "الزُّهّارة"!

والزّهّارة أو الزّهّيرة هي النّار الّتي توقد من الحطب، بدأ البرد يرتحلُ إلى الأماكن الأبعد حيث لا تضيء خلوتَهُ النّار، شعرنا بالدفء حالا، رغمَ كلماتِه المخيفة قبل الآن إلّا أنّ قلّة كلام عمّي مومن جدّ واضحة، كأنّه يفكّر طول الوقت في الكلام الّذي قد يقوله، أظنّ ذلك أمرا جيّدا، يذكّرني هذا بتلك القصّة الّتي حدثت قبل سنوات، حين كنتُ تلميذا في الطّور المتوسّط، كنتُ الوحيد من بين زملائي الّذي يكتبُ بقلم جافٍّ على كرّاس المحاولات بدل استعمال قلم الرّصاص، سألني أستاذ الرّيّاضيّات "خربوش" منزعجا:

-لماذا لا تكتب بقلم الرّصاص؟

-كي لا أتجرّا على محو أخطائي، هكذا سأتذكّرها وأتجنّبها مستقبلا.

بدا مندهشا ولم يقل شيئا، انصرف فحسب بينما لا تزال يداه خلف ظهره، حينها أدركتُ أنّي على حقّ، لأنّ المعلّم لم يصفح يوما عمّن يخالفُ تعليماته، كان العفو عنّي وتركي على طريقتي الّتي اخترتُها أكثر من مجرّد مديح، كان تشجيعا واضحا لي على المواصلة، ما حدث ذاك اليوم جعلني أصرّ على رسم الأشكال الهندسيّة أيضا بقلم جافٍّ ثخين، لذلك استدعاني المعلّم مجدّدا فاتحا ورقة إجابتي:

-دعني أحزر، تريدُ أن تتذكّر أخطاءك؟

أجبته:

-في الواقع، أحاولُ أن أتعلّم أنّ هناكَ زلّات لا تُغتفر، أتأكّد جيّدا أنّي محقّ ثمّ أرسم الأشكال وأقنعُ نفسي أنّي إن أخطأت فلن أحصل على فرصة لتصويب الأمر.

ابتسم المعلّم ومسح على رأسي، كانتْ المرّة الوحيدة الّتي أسعدُ فيها بإفساد أحدِهم لقَصّة شعري... عمّي مومن يبدو مثلي وأنا تلميذٌ أتأكّد من صحّة إجابتي قبل كتابتها على ورقة الامتحان بالقلم الجاف.

المشكلة في هذه الحياة أنّ من يقدّرك يكتمُ قدرَك في نفسِه، أمّا الآخرون الّذين تعرفهم يمقتون الحقيقة، لذلك تجاهُلُك بالنّسبة لهم هو جزءٌ من تجاهلها فحسب، الغرباء هم من يقدّر الحقيقة ويتقبّلها منك لغياب الاعتبارات الشّخصيّة، خاصّة إن كانت الحقيقةُ كلماتٍ على كتاب أو على موقع إلكتروني... الغرباء وفي محاولتهم لتقدير الحقيقة يقدّرونك، وبعدَ أن تنالَ ثقتَهمْ سيقدّرونها لأنّها جزءٌ منك، قد تكونُ كاتبا وقد لا يكونون من زمنك، حينها لستُ متأكّدا أن خلود كلماتك سيشكّل فائدة إلّا أن ترافقه دعواتهم لك بالرّحمة، خلودك هذا لا يفيدك بل يفيد من يأتي بعدك! تماما كإرث عجوز غنيّ كدحَ طول حياته!

عمّي مومن يستحقّ التّقدير ما دام حيّا فليس من السّهل أن تكون بهذه البساطة، أتساءل عن قدر التّعقيد الّذي كان عليه، لتكون بسيطا عليك أنْ تكون معقّدا أوّلا، أما الّذين وجدوا أنفسهم منذ البداية بسطاء فليسوا إلّا تجربة غير ناضجة سينضجها تعاقب اللّيل والنّهار... حملتُ مسجّل صوتي ورحنا ثلاثتنا نسجّل ما يحكيه لنا عمّي مومن، رمى أبصارنا بإصبعه إلى منطقة تُرى على مدّ البصر وقال:

-هناك يظهر أحيانا أصحاب القصعة[1]!

-ومن هم يا عمّي!؟

-يقال أنّها أرواحٌ طيّبة، تُرى أحيانا بعض النّيران رغمَ عدم عيش أحدٍ هناك.

شعرتُ ببعض الخوفِ لكنّ حماسي كان أكبر، لم تفارقني أريام الّتي كانتْ متمسّكة بيدي طول هذه الفترة، واصل عمّي مومن:

[1]قصّة **أصحاب القصعة السّبعة** جزء من تأليف الرّواية ولا علاقة له بالتّاريخ، وجاءت في التّهميش بسبب خشيتي من أن يُعتقد أنها حقيقيّة بسبب دمجِها مع قصّة الملك ماسينيسا الموثّقة في كتب التّاريخ.

-يحكى أنّه في قديم الزّمان، وبعد أن هزمَ ملكُ نوميديا "ماسينيسا" القائدَ القرطاجي "حنبعل"، ازدهرت التّجارة والزّراعة في المملكة، لكن بعد وفاته قامت نزاعات بين أبنائه الثلاث"ميسبسا" و"غولوسا" و"مستنبعل" على الحكم، حينها تدخّلت الرّوم وفصلت بتقسيم الأدوار في الدّول عليهم، واستطاع ميسبسا الانفراد بالحكم في النّهاية وازدهرتِ الدّولة في عهده، وبعد وفاته اقتسم الحكمَ مجدّدا "اذربعل" و"هيمبسال" وابن أخيه "يوغرطة" الّذي غزا أراضي هيمبسال وقتله، ثمّ غزا أراضي اذربعل وقتله هو الآخر، تدخّلت الرّوم للقضاء على يوغرطة لكنّها انهزمت أمام تنظيمه وقوّته ومساندة حماهُ "بوخوس الأوّل" ملك موريتانيا، يقالُ أنّه وُجدتْ سبعة رسلٍ كانتْ تنقل الرّسائل بين يوغرطة وبوخوس، كانوا معتادين على الاجتماع في مكانٍ محدّد، حيث يحضر كلّ منهم طعاما ثمّ يوضع في "القصعة" ويأكلون سويّا قبل الانطلاق، بعد مدّة قرّر بوخوس الغدر بيوغرطة بتأثير من الرّوم والخازن "قسطور"، فأرسل جواسيس خلف الرّسل وأمر بقتلِهم.

شعرتُ بالخشوع وغرقَت ذاكرتي في الخيال حينَ أشار عمّي مومن بإصبعه إلى مكان بعيد وقال:

-لقد قاموا بقتلهم هناك أمام "قصعة" الطّعام، كانت النّار متّقدة حين حدث ذلك ومن يومها لم تهدأ! يُقال أنّها لن تهدأ إلى أن تأخذ الأرواح المغدورة بثأرها.

-وكيف ستأخذ بثأرها؟ وممّن؟

-تدعى هذه الأرواح الغاضبة هنا بـ "زقوقن"، قد لا يصدّق البعض وجودها لكن كثيرون من رأوها وهي تتهيّأ لهم، أحيانا تطلب شيئا ما وأحيانا أخرى تمرّ فحسب أو تنظر إليك دون فعل أيّ شيء آخر، لكن الأكيد أنّها لم تكلّم أحدا من قبل، أمّا عن الثّأر، فالجميع هنا يتجنّب الذّهاب إلى هناك، يظنّون أنّ الأرواح الغاضبة قد تخطئ أحيانا إن أعماها الغضب وقد يكون ضحيّتها شخص بريء، أو ربّما قد يزعجُها مرور شخص ما أو إحداثه لضجّة فتؤذيه أو تتعلّق رائحتها بثيابه، نحن الأحياء لا نعرف الكثير عن هذه الأرواح الغامضة حتّى أنّنا لا ندري إن كانتْ أرواحا حقيقة أم هي أشياء أخرى.

قالَ ذلك موحيا برأسِه ونبرتِه أنّها قد تكونُ مخلوقات شرّيرة مفزعة كالشّياطين والعفاريت، أشعرني حديث عمّي مومنْ بكثير من الخوف، اللّيل الوقت الأنسب لتغذية كلّ أنواع المشاعر، يزداد الحماس ويعظم الحزن ويبدُر النّدم

ويتفاقم الخوف ويفحشُ الحبّ... التفتُّ إلى أريام وكانت في غاية الخوف، احتماؤها بي كان صادقا لذلك كان جميلا، أو أنّه بدا صادقا لجماله، تبدّد الخوفُ الّذي شعرتُ به قبل قليل لمّا رأيتُ الشّجاعُ الّذي تظنّ أنّي عليه في نظراتِها الوجفة، كانتْ من جديد قوّةُ الوهم تفعل فعلتَها، الأمر أشبه بارتداء نظّارات تمكّنُك فجأة من التحديق في عين الشّمس، أو بِكومة من الشّيح تستنشق الدّخان المنبعث من حريقِها، فيزول الألم الّذي يشقّ رأسك كما علّمتني إحدى الوصفات التّقليديّة لخالتي "فطيمة" قبل أيّام من الآن.

كانَ تعلّقُ عمّي مومن بأرضه قويّا بغرابة، رحل الكثيرون ولم يشعرهُ هجرُ من آنسوهُ بضرورة الرّحيل، هو الآن أشبه بالقطط الّتي تسِمُ مناطقَ نفوذِها وترعرُعِها ثمّ تبقى وفيّة لها إلى الأبد حتّى وإنْ هاجرها مالكوها... الوفاءُ للأشياء بدل الأشخاص! ربّما لأنّ الأماكن لا تخذلُ من يحبّها لذاتِها، كثيرة هي المرّات الّتي نكفّ فيها عن حبّ الأماكن لأنّها خلتْ ممّن نحبّ لكنّنا لم نكره يوما أحبابا أو نكفّ عن حبّهم لأنّ بقاع الأرضِ انسحبت من تحت أقدامهم... روى عمّي مومن لنا شيئا عن هذا أيضا، عن كاتدرائيّة القدّيس "اسطيفان بفيينا"، في وقت ما حاولَ الألمان بناء كاتدرائيّة مماثلة لها بنفس المعايير والمواد والأبعاد حسبَ زعمِه، لكنّ المحبط هو أنّ الصّوت لم يتردّد داخلها أبدا كما تردّد في كاتدرائيّة فيينا،

لم يكنْ ثمتَ من تفسير منطقيّ أو علميّ في كلّ مرّة حاول فيها العلماء تفسير الأمر، غيرَ أنّ باحثي الميتافيزيقا أكّدوا أن الأمرَ يعودُ إلى الأرواح الّتي عاشت هناك خلال سنين طويلة، الجدران والأرض والهواء وكلّ شيء هنا يحتفظ ببقايا المّارّين، هكذا تكون الأماكن وفيّة لأصحابها!

أشعرني حديث عمّي مومن بقشعريرة وتململ في معظم جسدي، تذكّرتُ كيفَ كنّا نزيّن القسمَ أيّام الطّفولة، وكيفَ كان يزعجنا أن يدرسَ فيه غيرُنا، كنّا نحبّه ولم نفكّر يوما في احتمال أنّه يحبّنا، زاد شعوري حدّة عندما أشار عمّي بعيدا عن المرّة السّابقة بحوالي أربعين درجة إلى ديار الطّوب المنهارة وقال:

-الغريبُ أنّ هذه الدّيار لا تنهدمُ إلّا بعدَ رحيل أصحابِها، الكلّ هنا يعرف هذا!

تذكّرت كلمات والدي الّذي ترعرع بالقنادسة وهو يقول:

" عندما تندثرُ من الدّار رائحة أصحابِها، تنهدمُ فحسب".

عند دخولِنا القنادسة قبلَ أيّام أحسّت أريام بتغيّر الهواء، لم تكن الوحيدة بل حدث ذلك معي أيضا رغمَ إنكاري ذلك ومع صديقتي الغريبة الّتي كثيرا ما

أكلّمها عبر الفايسبوك، هل يسمعنا الجماد؟ هل يفقه أقوالَنا وأفعالنا؟ دخلتُ مرحلة شكٍّ في كلّ ما اعتبرتُهُ مُسلَّمات سابقا... قال بعدَ ذلك عمّي مومن:

قبلَ بضعة عقود، كان بعضُ النّخيل–كما يحدثُ في أيامِنا–يكفُّ عن إعطاء التّمور، فكانَ يقصدُ النّخلة ثلاثة أشخاص يحملون فأسا، يقفونَ حولَها ويدورُ بينَهم نقاشٌ حادّ حولها يتظاهرُ فيه اثنان بعجلتهم إلى قطعِها، بينما يستعطِفُهم الثّالث لألّا يفعلوا لأنّها ستعطي تمورا الموسمَ المقبل، ويحرصون أثناء ذلك على أن تسمَعهم النّخلة، العجيبُ في الأمر هو أنّها عادة ما تعطي تمورا في الموسمِ الّذي يليه!

الأشخاصِ كالعطر

بتنا تلك اللّيلة عندَ عمّي مومن نتدثّر باللّحافات الثّقيلة و"البرّاكنو" ثم غادَرْنا صباحا، لا عذرَ لمنْ يريد التّعلّم، ما لا تقرأه ستصادِفُه في أفواهْ القارئين وما لا تجرّبه ستحاكيه على ألسنةِ المجرّبين، هذا ما وضّحتْه لي سهرة معه، بدتْ أريام منهكة قبلَ أن تنهار، الجوّ هناك كانَ أقسى من أن تتحمّلَه رقيقة مثلُها، ركبنا سيّارة أجرة فرديّة وعجلتُ بها إلى المستشفى الكبير... المستشفى! صار هذا المكان يوتّرني ويشعرني بالضّياع، في كلّ مرّة أمشي في أروقته أضيع في الذّكريات، أكادُ أرى الأرواح الّتي تسكن المكان كما حدّثني عمّي مومن، بعضها معلّق إلى السّقف والآخر مطروح في المسار، تتمسّح بالجدران وتترقّب الملتحقين قريبا، عيونُها باهتة، على أجسامِها ضمادات أو أنابيب، تكتفي بالتّحديق إلينا كأنّها ترى فينا ماضيها المرهق، أنظُرُ ولا أرى بينَها من أتمنّى رؤيته، لا أرى إيمان! الحنين إليها أقوى من رائحة الأدوية والمرضى والممرّضين، فجأة يختفي الجميع عندما تُشرقُ ذكراها بين ناظريّ.

انتظرتُ مع أريام بضع دقائق في الاستعجالات ريثما يحلّ دورُها وتستقبلها الطّبيبة المناوبة، طلبتُ منها الاتصال بي فورَ خروجِها وسأكون في انتظارها بسّاحة

المستشفى... هناكَ في السّاحة، بدوتُ كمن يتنزّهُ ضائعا بخطواتٍ مبعثرة، غيرَ أنّها كانتْ محسوبة في عالَمِ الذّكرى الّذي ابتلعني، كنتُ أخوض في الممرّات وأعتلي التّلال وبرفقتي إيمان متعلّقة بيدي، ماذا سأقول لأريام لدى عودتي إلى الدّاخل؟ كنتُ مع إيمان نركبُ عجلة الملهى العملاقة ونلهو؟ أ يحقُّ لي إخفاء خيانتي عنها؟ أنّ إيمان لا تزالُ حيّة داخلي؟

أنا اليوم في أشجع قراراتي أخشى لقاء يسرى، لا أدري إن كانتْ نجتْ بعدَ زرعِ قلب إيمان داخلها، لم أسأل خشية أن يُقالَ لي أنّ الإرث الّذي أوصت به الحبيبة إيمان لي في آخرِ أيّامها قد توقّف عن النّبض! لم تُخبرني إيمان بما عليّ فعلُه ولم تطلب منّي شيئا محدّدا، كلّ ما فعلَتْهُ هو طلبُ أنْ أُمنَح قلبَها بعدَ موتِها، هل كانتْ تثقُ بي لدرجةٍ جعلتْها تعتقدُ أنّي سأفعل به ما أرادتني أن أفعلَه حتّى دونَ أن تخبرني؟ أمْ أنّها راهنتْ على أنّي سأقوم بالأمر الصّائب؟ أم أنّها تركتْه لي لمجرّد الإيفاء بوعدها حين قالتْ: "سيبقى قلبي دائما مِلكا لك"!؟

لن أعرفَ الجواب ولن يغيّر الجوابُ من الواقع شيئا على كلّ حال، فقد أصبحتُ مدمنا على التّفكير وسأتساءل دوما عن شيء ما... خرجتْ أريامْ وفاجأتني هناك في السّاحة، سحبتني من جديد إلى الواقع، كنتُ أنتظر اتّصالَها

لكنّها خرجتْ من هناك فحسب، بدتْ مرتبكة وهي تمسِكُ هاتفَها، تمكّنتُ من رؤيتِه يرنّ وهي تُطبقُ عليهِ كرهينة تحاولُ إسكاتَها كي لا تصرخ بينما تفتّش الشّرطة الدّار.

-هل أنتِ بخير؟

-نعم، لا تقلق.

-ماذا قالتِ الطّبيبة؟

-نزلة برد، وصفتْ لي بعض الأدوية الاعتياديّة.

-"بالشفا عليك أ قلبي."

لم أردْ أن أضغطَها لكنّي علمتُ أنّها تكتُمُ أمرا ما... تسرّبَ إلى ذهني الأسوء! أردفتْ قائلة عبارتَها غير المتوقّعة:

-"بعضُ الأشخاصِ كالعطر الّذي تنسا رائحته، لكنّك حين تشمّها مجدّدا تدرِكُ أنّك كنتَ تتذكّره داخلك طول الوقت."

يا إلهي! هل أدركتْ أنّي لم أنسَ إيمان رغم موتِها؟ هل ذكرتُ اسمَها سهوا دونَ أن أشعر؟

-هذه الكلماتُ لم تكنْ كلماتي!

أردفت أريام قائلة هذا، ثمّ سادَ الصّمت، أريام... كانتْ تتصرّف بغرابة شديدة، أيعقلُ أنّ ما يحدثُ هو ما يجولُ ببالي الآن؟

-"شبرير الضّحّاك" يضحك عليك...

راحت تردّدها خالتي ديهيّة وهي تضحكُ بهستيرية وتفتح جفنيها على مصراعيهما، شبرير الضّحّاك!

-ما هو شبرير الضّحّاك يا خالتي؟

راحتْ تنظرُ يمينا وشمالا كأنّها تختبئ من شيء ما أو تترقّبه وتردّد:

-أسسسسْ... شششتْ... أسكوووتْ... أسكتْ!

بعدها اقتربتْ منّا أكثر، بدا وجهها مخيفا عندما تباين بين الظّلمات والنّور الّذَيْن صنعتْهما الشّعلة تحتها، اقتربتْ هامسة كأنّها تخشى أن يسمعها أحد ما، كانتْ تثبّت نظراتِها في أعيننا، حينَ تنظرُ إليها طويلا ستشعر بالرّعب، ستتبيّن فيها تفاصيل جديدة بعضُها حقيقيّ وبعضها يصنعُه خيالك.

الفصل الواحد والعشرون

كان الفصل خريفا يومها، كلّ شيئا كان مقدّرا حصولُه، لم يكنْ يعلمُ "شبرير الضّحّاك" أنّ قدومَه هذه المرّة سيساهمُ في عودة والِده، صادفَ قدومُه يوم النّبوءة!

بعدَ صلبِ الرّوح الشّريرة لحاصد اللّيل على شجرة البان العملاقة، دبّت المانا في تماثيل العفاريت السّبعة مجدّدا، وقف العفريت الأوّل موايِ شامخا وانحنت له العفاريت العظمى بخضوع، أحجامهم عظيمة وقواهم خارقة، آبانوخ عفريت الرّياح وحمّو-قيّو عفريت الأنهار وأغوليد عفريت الجبال وشبرير الضّحّاك عفريت الخريف وبوشكارة عفريت الكوابيس وأخيرا "قدَّاش" عفريتْ الزّمكان الّذي استعانت به السّاحرة أريناس، وطوّعته بسحرها لخدمتها.

كان الجميع مصعوقا ومندهشا، العفاريت مخلوقات خارقة القوّة، واقعُ تحوّلها إلى أجسادَ مادّية لا ينقصُ من شأنها، إلّا بالنّسبة لمخلوقٍ واحد... الشّيطان أولمك! لقدْ حقّق مرادَه الآن، فها هو ذا موايِ يعود إلى الحياة مجدّدا،

بإمكانِه الآن الانتقام منه كما حلمَ منذ دهر، تحوُّل مواي إلى جسدٍ مادّي سيحدّ من قدراته كثيرا ويمكّنُ أولمك منه ويعينه على أسره وتعذيبه جزاء بخيانته.

نظرَ مواي بعدَ أن قامتْ التّماثيل من انحنائها إلى أڤمد.

-ها أنت ذا هنا أيّها التّنّين الأسطوري!

-كيف تعرف من أنا؟

ضحك مواي ضحكة اهتزّت لها الأرض وقال:

-يا لوقاحتك! أنا العفريت العظيم مواي!

كما حدث مع الجميع قبلَه، كان مواي معجبا بشخصيّة أڤمد وعزيمته، راقبَ مواي كلّ ما يجري في الأراضي خلال القرون الماضية، أثناء مكوثه في العالم الآخر.

-لقد فتحتَ أبوابَ الجحيم على العوالم يا أڤمد!

-بل أعدتُ بعثَك لتغلقَها وتصلحَ الخلل الواقع في بوّابة العالم السّفلي، لألّا يعود أولمك.

حدّق موايي بأڤمد طويلا ثمّ قال:

-أ تظنّ أنّ شيطانا كأولمك كان عاجزا عن عبور البوّابة حقّا؟ أتظنّ أنّه أراد الشّعلة المقدّسة ليعبرَها؟ كلّ ما أرادَه أولمك منذ البداية، ساعدتَه أنت في الوصول إليه!

في هذه اللّحظة أحسّ أڤمد بصعقة تشلّ أطرافه، عاد بشريط ذكرياته إلى حديثه مع ملك الأدفل، حينَ أخبرَه بخيانة موايي لأولمك مع الفزّاعة ترڤو ورغبة الشّيطان القويّة في الانتقام، أدركَ أڤمد أنّ ما أرادَه أولمك هو عودة موايي ليتمكّن من الانتقام منه.

-لكنّ أولمك آخر من عليكَ القلق بشأنه!

-كيف ذلك؟

-في العالم الآخر، أين كنت، هنالك من يتوق للرّجوع بقوّة، قوايَ وقوى أولمك ولا واحدة منهما تضاهي قوّة هذه الكيانات المتعطّشة للعودة!

أنصتَ أڤمد في خشوع، شعرَ بالضّعف الشّديد وبالعجز، كانَ موايي مُحقّا، فعلى البوّابة الفاصلة بين عالم الخالدين وعالمنا، كانتْ الرّوح المكمِّلة تنتظر بلهف

لحظة انفتاح البوّابة، فاتها الانفتاح الأوّل عندما عبرتْ روح العفريت أغوليد، ومن يومِها وهي تترقّب الانفتاح مجدّدا، وعندَ انبعاث موايَ مجدّدا، تسلّلت عبرَها، ظهورُها الآن واستيلاؤها على العالم أصبحَ قضيّة وقت فحسب، حينَ تستقرّ الرّوح المكمّلة، سيرى هذا العالم الجحيم الحقيقي!

نهاية أصليّة

كنتُ قلقا بشأن أريام كثيرا، لذلك اصطحبتُها إلى بيت ابنة عمّها ميلين وزوجِها أحمد، بدا حالُها أحسن فور رؤيتِها لابنتِهما الصّغيرة، كانتْ أريام كجلّ النّساء عاشقة للأطفال، لابتسامتِهم وخدودهم وعضّتهم القاتلة، كانتْ متمنّعة عن الاقتراب منها كثيرا كي لا تصيبَها بعدوى.

-إذن، هل أتممتَ الجزءَ الثّاني من الرّواية؟

-نعم، منذُ فترة...

-لكنّك تشعرُ أنّ هنالكَ المزيد!

حينَ تتحدّثُ إلى أحمد، ستشعر أنّه ليسَ عليكَ أن تقولَ كلّ شيء، أحمدْ الشّخصُ الّذي إن كنتَ تريدُ إخفاء شيء عنه فيحسُنُ بك ألّا تلتقيه ولا تكلّمَهُ أساسا، صارَ أحسنَ حالا منذ آخر مرّة رأيتُهُ فيها، حتّى أنّ وزنَهُ أصبحَ مقاربا لوزني وانفلت منهُ بطنُهُ، لعلّ الأزواجَ يحافظونَ على رشاقتِهم ليبدو في مظهرٍ أنيق، لكنّ الزّواجَ يشعِرُهم أنّهم برفقة شخصٍ يتقبّلهم مهما كانَ مظهَرُهُمْ، كما أنّهم لن يستعملوا رشاقَتَهم ووسامَتهم في اصطياد قلوب الصّبايا، لذلك يصبح اهتمامهم بمظهرهم أقلّ، أجبته:

–وهل هنالك مزيد؟

–حينَ روتْ لي ميلين بقيّة الحكاية كانَ شعورُ كلينا كذلك، هنالك دوما مزيد حينَ نشاءُ ذلك، يمكنك دائما تناوُل لقمة إضافية يدعوك إليها صديقك رغمَ أنّك أكلتَ قبلها إلى حدّ التّخمة.

–أوْ يمكنك التّظاهرُ بالأكل فحسب!

في هذه اللّحظات تدخّلت ميلين قائلة:

–نحنُ نصرّ على عدمِ فهمِ بعضِنا فحسب، فلمَ–مثلا–عليك التّظاهر بعدم رؤية زميلك ينظّف أنفه رغمَ أنّ كليكما رأى ذلك؟ ولمَ عليك مدّ يدكَ لمصافحتِه بعدها متظاهرا أنّ شيئا لم يكنْ رغمَ علمكما أنّ ذلك منفرٌ لك ومحرجٌ له؟ هل الوضوح مزعجٌ إلى هذا الحدّ؟

نظرَ أحمدْ إلى ميلين نظرة فيها مسحة من الخشونة كأنّه يقول: " تبّا! بحقّ الربّ ما الذي تتفوّهينَ به يا امرأة؟"

حينها لم أتمالك أنا وأريام نفسينا من الضّحك سرعان ما التحق بنا أحمدْ وميلين في ذلك، عندئذ قلتُ والضّحكاتُ تغالب كلماتي:

-أليس هذا بالضّبط ما كانتْ تقصدُهُ قبلَ قليل؟ تجنّب التّصريح بالواقع ووصفه بما هو عليه!

انتظرنا الضّحكات والقهقهات ريثما تهدأ، حينها قال أحمد:

-وما الذي تنوي فعله؟

-بشأنِ ماذا؟

نظرَ أحمد موجّها بؤبؤه إلى السّماء متبرّما من بُطئ فهمي كأنّه يعاتبني قائلا:

"كم صرتَ بطيء الفهم!"

فهِمتُ أنّه يقصدُ الرّجوعَ إلى موضوعِنا الأساسيّ الّذي تهنا عنه للحظات:

-في الحقيقة، فكّرتُ في اختراعِ جزء ثالثٍ للأسطورة!

-ثوريٌّ جدّا! وكيفَ تنوي ذلك؟

التفتُّ إلى أريامَ باحثا في وجهِها عن ذاك الدّعم الّذي اعتادتْ أن تبديه لي وقلت:

–خلالَ الأيّام الماضيّة زرتُ مع أريام القنادسة، المنطقة مسكونة بروح الأساطير، كما أنّي استمعتُ لقصص غريبة حدثت هناك رواها لي بعضُ ساكنيها، أظنّني جمعتُ ما يكفي الآن من أجل كتابة بقيّة القصّة.

–لديّ اقتراحٌ قد يثير اهتمامك!

حينَ يقترحُ أحمد أمرا فليسَ عليكَ التّفكير في قبولِه، بل في المدّة الّتي عليك استغراقُها من أجل القبول! واصل قائلا:

–أخبرَ عمّي يغموراسن ميلين في الأيّام الماضية، أنّ "عمّي موسى" –رحمَه الله–له طليقة على قيدِ الحياة، لم تعدْ تعيشُ في القرية بل غادرتْ إلى إحدى القرى المجاورة، يُقالُ أنّها صعبة المراس لكنْ قد نحصُلُ على شيء ما منها إن أصررنا!

أثلجَ كلام أحمدْ صدري، وقلت:

–إذا سأذهبُ إليها في أسرع وقتٍ ممكن!

–سأرافقك! بعد غدٍ سآخذ إجازة وأنوي السّفر مع ميلين لزيارة أهلها، لا أريدُ أن يلومني عمّي على عدمِ إحضارِها مجدّدا.

تساءلتُ داخلي:

"كيفَ من الممكنِ للأمر أن يغدوَ أفضل ممّا هو عليه؟"

فعلُ الأمر الّذي نريدُ فعلَه لا يعدو كونَه حركات، إنّما ما يعطيه معنى هو زمنُه أو الزّمن الّذي يكونُ خلاله، فقطع مئة خطوة خلالَ ساعة يدعى مشيا، بينما مئة خطوة خلال دقيقة يدعى جريا، الإسراع في السّفر إلى هناك أين تعيشُ طليقة "عمّي موسى" قد يكونُ فرصتي الوحيدة للحصول على نهاية أصليّة لأسطورة أڤمد ولكي يسمَعها العالم! كنتُ واثقا أنّ من ورائها سرّا عظيما وحكمة لم تكتمل، وما يروى عن أڤمد ما هو إلّا بعضٌ من معالِمها المكشوفة، لا يُعقلُ أن تبدأ القصّة ببطلٍ كأڤمد وتنتهي ببطولة عفريت، أشعر أنّ لأڤمد المزيد ليقوله... ليُكتشف، هو يصيحُ بي من خلفِ حجاب قائلا: "ابحث عنّي!"، لم يقلْ كلمتَهُ الأخيرة بعد، كلّ شيء داخلي... وكلّ من قرأ كلمات الرّواية وكلّ من سيقرأها، الجميع أحسّ أو سيحسّ أنّ شيئا ما لم يكتمل، من أجلهم جميعا سأكتب كلمات فصولها الأخيرة مهما كان الثّمن!

نظرتُ إلى أريام لأسألها...

-سأبقى عزيزي، لديّ كثيرٌ من التّحضيرات ولن أعودَ إلى البيت.

-حسنا جميلتي، كوني بخير فحسب...

ما الّذي تخفيه عنّي يا ترى؟ مِن حقِّ الجميع أن يحزنَ بين الحين والآخر، الحزن هو الأصل! أوّل ما نزلنا إلى الدّنيا كنّا حزينين بسبب طردنا من الجنّة، ثمّ حزينين لخروجنا من بطونِ أمّهاتنا، من يومِها نحاوِلُ أنْ نكونَ بخير قدر الامكان، لكن لمَ عليها أن تحزَن الآن بالضّبط؟ ما الّذي حدث هناك بعد أن تركتُها لدقائق في المستشفى؟ ما هذهِ القواعِدُ الّتي تُسنّ قبلَ أن ندري بذلك؟ منذُ متى على الرّجل أن يلازمَ فتاتَه طول الوقت؟ يذكّرني هذا بالشّجارات الّتي خضتُها في صغري ومعظَمها كان من أجل إيمان، كنتُ أتساءل دوما:

"من الذي فرض عدم استخدام العضّ أثناء القتال؟"

طرحتُ هذا السّؤال قبلَ لحظاتٍ منْ منازلة أحدِ الشّبّان المتغطرسين في السّنة الأولى من الثّانويّة، كان أضخم منّي وحين ضربني قُمت بنهش قطعة لحم من يده جعَلتْ دماءَه تتطاير كالنّافورة، قاموا بطردي من تلك الثانوية ولم أتمكّن من الرّجوع إلّا بعدَ تعهّدات وترجّيات أهلي، عاقبوني ظلما لأنّي أحققتُ العدل، منذ متى كانَ العدل هو إنصاف المصاب بدلَ معالجته ثمّ معاقبته إن كان ظالما؟ من يومِها اقتنعتُ أنّ العدلَ والجزاء ليسا توأمين وليست بينهما صلة قرابة لكنْ يصادفُ أن يجتمعا أحيانا، آمُلُ أن تكونَ أريام بخير، هذا كلّ شيء...

سافرتُ بعد يومين رفقة أحمد وميلين، كانتْ أوّل مرّة أرى فيها قرية آث-سعيد الّتي سبقَ أن حدّثني عنها كثيرا، كنتُ أظنّ أنّه بالغَ في وصف الأجواء هناك لكنْ يبدو أنّه كانَ مقتصدا في الوصف، كانَ شعوري غريبا جدّا وأنا أقفُ في المكانِ الّذي كتبتُ عنه كثيرا قبل رؤيتِه، أدركتُ عندئذ مدى خطئي، كم نحنُ مغرورون حينَ نظنّ أنّنا نعرف الأشياء الّتي لمْ نختبرها!

لمَ يسامحُنا الله؟

هنا تشرّد أحمد وحيدا من أجلِ ميلين، عثرَ على بيتِها رغمَ كلّ شيء وواجَه أباها وهو يعلَمُ مسبقا أنّه سيرفض، ما الّذي يجعلُ إنسانا يقدّم كلّ ما يملِكُه من أجل إنسانٍ آخر لا يُلزمُه نحوهِ بذلك قانونٌ ولا حُكم؟ كم هو غريبٌ هذا الحبّ الّذي يعطينا حقّ تملّك الآخرين ويمنحهم الرّضى بسلطتِنا عليهم... في مرحلةٍ متقدّمة من اليأس، أظنّه كانَ سيتنازلُ عنها، لكنّ تمسُّكَها به ألغى كلّ فكرةٍ تصبّ في هذا الاحتمال، فكّر أنّ الرهانَ الّذي لا تكسبُ منه شيئا قد تفقد فيه أيّ شيء، عصفتْ به الرّياحُ من كلّ صوبٍ فتمسّك بنفسِه! ما يجعلُ إنسانا يقدّم كلَّ ما يملِكُه من أجل إنسانٍ آخر، هو ما يقدّمُه الإنسان الآخرُ بالمقابل، أمّا من يبذلُ نفسَهُ في سبيل شخصٍ مستعدّ للتّنازل عنْهُ ببساطة فليس سوى أحمقٍ عنيدْ!

بدأتْ صداقتُنا قبل سنة من شهادة التّعليم المتوسّط سنة 2001، كانَ منعزلا عن الآخرين وكنتُ لا أحبّذ الاختلاط كثيرا، بدتْ فكرة صداقتِنا مناسبة غيرَ أنّنا لم نتعمّد توطيدَها، كنّا نحضّر لاختبار الموسيقى وأعرتُه كرّاسي لكنّ المدّة طالت قبلَ أن يعيده ما جعلني أقصد بيتَه تتاليّا طلبا للكرّاس، عندئذ خطرت ببالنا فكرة المراجعة معا وطالَ ذلك بقيّة الاختبارات وخفّفت من مراجعتي رفقة إيمان، من

يومَها أصبحنا صديقين، كانَ من المؤسف أنّه اضطرّ إلى الدّراسة في ثانويّة أخرى تدعى "أبي الرّيحان البيروني" لأنّه اختار تخصّص "التقنيّ الرّيّاضي".

من الصّعبِ إقناعُ أحمدْ أنّ ألمَ المرضِ الّذي أصابَه وألمَ حياتِه العائليّة المزرية ليسا أشدّ من الألم الّذي أعيشُه وعشتُه بشكلٍ أفظعَ في أوّل أيّام فقداني إيمان آخر أفراد عائلتي، الابتسامة الّتي تعلو وجهي هي الأزهار الّتي نبتت من بقاياي، عدتُ من الموتِ وحينَ أفقتُ لم أكنْ أنا، إيمان... كانتْ بعضي الّذي اختفى، حتّى أنّي لا أدري من كنتُ دونَها ولا من أكونُ بعدها، هذا شبيه بالمقطع القائل:

" بعض الأشخاص حين يتملكون بحياتنا، يصعب علينا تذكّر حياتنا من دونهم، يمكننا تذكّر لحظة دخولهم عالمنا، هو دخول بأثر رجعي... عكسي، كأنّهم كانوا موجودين قبله وما هو إلا مركزُ تناظر بين زمنين "قبلهم" و "بعدهم".[1]

أحيانا شعرتُ أنّي أضعفُ من أنْ أرفعَ يديَّ للدّعاء، كنتُ أصادِفُ المسنّين وأقبّلُ رؤوسَهم وأطلبُ منْهم الدّعاء من أجلي ثمّ أهربُ خشية نظراتِهم المشفقة، متُّ كثيرا ولم يُقَمْ لي قبرٌ ليتذكّرني النّاس بدعواتِهم حينَ يرونَه، لم يُقمْ لي قبرٌ يذكّرهُم بأنّ هنالِكَ داخِلَه من ينتظرُ زيارتَهم، كنتُ مدفونا في زاويةٍ معزولة في

[1] من كتاب كيد الرّجال-بلغنّامي عبدالرحيم

"الغربة"، كتبتُ على هاتفي "فليرحمني القدير!" ورأيتها كلّما نظرتُ إليه، كانتْ تلكَ العبارةُ شاهدَ قبري الوحيد! كنتُ مضطرّا لكظم أحزاني ومبادلة الآخرين ابتساماتهم، أشدّ دموعك حرقةً هي تلك الّتي تضحِكُ أصدقاءك وأحبّاءك...

في كلّ جزء من صدري ضِلعٌ محطّم، الأحزان تزاحم ذرّات الأكسجين على دمائي، في كل زفرةٍ تنهيدةٌ خفيّة، ألفظُ دخانَ المحرقةِ الّتي تأبى أن تخمد داخلي كطفلٍ مستمتعٍ ببخارِ الماء الخارج من جوفِه، هل من الممكن أن يتخلّى الله عنّا؟ إنْ كانَ ذلك ممكنا، فقد أعطيتُه ما يكفي من الأسباب، اقترفتُ كلّ ما استطعتُ اقترافَه من الذّنوب خلالَ حياتي، استغللتُ كرَمَه وحِلمَه في التّمادي، نمتُ خائفا كلّ يومٍ مترقّبا أن يزورني الموتُ وأنا غير مستعدّ للّقاء ونهضتُ صباحا بكلّ وقاحة أظنّ أنّه أقدرُ عليّ في ظلماتِ اللّيل منهُ في الأنوار، كانَ يلفتُ انتباهي إلى مدى ضعفي والشّمسُ في كبِدِ السّماء، كمْ مرّة مررتُ بمجموعة من الكلاب العقورة وتجاهلَتْني، كمْ مرّة سقطتْ على بعدِ أمتارٍ من رأسي أشياءٌ كفيلةٌ بإردائي وكم... وكمْ سيّارة أوشكتْ على دهسي! الأمرُ أشبَهُ بتلكَ النّملة الّتي تركتُها تلسعني ثمّ وضعتُها بلطفٍ على الأرض، لعلّها ظنّت أنّ لسعَتَها كفيلة بإيذائي، أو ربّما ظنّتْ أنّها ندٌّ لي، لم آبهْ لها لأنّها لم تكن لتستطيع أن تضرّني، أو تزعجني حتّى!

لطالما تساءلت:

"لمَ يسامحُنا الله؟ وكيفَ يقرّرُ من يسامحه؟"

رغمَ ما شعرتُ به من تعدٍّ للحدودِ الّتي تكبحني كعبد إلّا أنّي تجرّأتُ على التّفكير في الأمر كثيرا، ظننتُ أنّ الله يسامحُنا لأنّه يعرفُ النّهاية... ذاكَ الفتى الّذي نهشتُ قطعة لحمٍ من يدِه، لربّما كانَ سيسامِحني لو اعتذرتُ منه بصدق، لكنْ اليومَ وبعدَ أنْ تمّ رفضُ انضمامِه إلى قوّات الجيش بسبب النّدبة الّتي تركتُها عليه لن يسامِحني ما حيا، الله وحدَه يسامحنا لأنّه يعلمُ النّهاية، أمّا نحن فنمضي حياتَنا نتأرجحُ بين العفو والسّخط وفقا للأحداث المترتّبة عن الأمور الّتي تعرّضنا لها في مرحلة متقدّمة، ما يجعلُ العدالة أيضا أمرا غير دقيق، فأنا أتساءلُ اليوم: " هل أحققتُ العدالة بِعَضِّ ذاك الفتى؟"، في وقتٍ مضى كانَ الجميعُ ليجيب: "نعم!"، أمّا اليوم فلا شكّ عندي أنّي جعلتُهُ يخسَرُ أكثر من اللّكمة الّتي وجّهها لي، كنتُ أُشبِّهُ الظُّلم بلَكْم الجدار، لكن يبدو أنّ الجدارَ قد يكونُ ملتَهِبا فيحرِقُ من يلكمه ولا يكتفي بكسرِ عظامِه!

سعادة الفقراء

خلال الأيّام السّابقة حدث شيء ما جعلَ عليّا يخرجُ من الرّكودِ الّذي يعيشُه، لقد شمّ عطرا جميلا أثناء مناوبتِه في مستشفى بشّار الّذي انتقلَ إليه حديثا، جمالُه لم يقتصرْ على نوع الأزهار الّتي اغتُصبَ منها بل لأنّه كانَ مؤلوفا جدّا بالنّسبة له، لقد عاد به إلى أيّامٍ جميلة قد خلتْ إلى حقبة تحكُمُها تلك الجميلة الّتي تخلّى عنها، دخلَ قاعة الانتظار وتأمّل وجوهَ المرضى ورآها! كانتْ أريام حقّا! من كانَ ليصدّق أنّ الصّدفة سترتّب هكذا لقاء وهو الّذي كانَ ينوي المجيء باحثا عنها في الجامعة؟ هل من حقّه الحديث معها؟ لقد تحدّث إليها فعلا قبل أن يفكّر في جوابٍ للسّؤال السّابق، ربّما لأنّ الجوابَ واضحٌ جدّا، تفاجأتْ كثيرا برؤيتِه هي الأخرى، فقدتْ فرصة التّظاهرِ بعدمِ رؤيتِه، لذلك ردّت عليه التحيّة فحسب.

-كيف حالك؟ لم نلتقِ منذ مدّة ليست بالقصيرة...

-أنا بخير، مجرّد إفلونزا بسيطة، سأكون بخير.

-تدرين... بعضُ الأشخاصِ كالعطر الّذي تنسين رائحته، لكنّك حين تشمّينَه مجدّدا تدرِكينَ أنّك كنتِ تتذكّرينه داخلك طول الوقت!

-ربّما علينا ألّا نعتادَ العطور إذن! ها أنتَ ذا هنا... في بشّار... عجبا!

لم تتوانَ أريام في إظهار تعجّبِها غير ملغية احتمال أنّ سبب قدومِه إلى هنا هو البقاء قريبا منها ولمَ لا استعادتُها؟

– غبنا عن بعضنا كثيرا، لكنّي اليومَ بعد لقائك أدركتُ أنّه لم يكن غيابا... لقد كانَ بثّا تجريبيا للموت!

كانتْ كلماتُه مؤثّرة جدّا، اخترقت قلبَ أريام وحطّمت قسوَتَها، هذا سببُ إخفائها ضُعفَها، فالآخرون حينَ يعرفونَ ما يضعفك سيستعملونَه ضدّك دون رحمة... أريام لم تكنْ قادرة على الحقد في الوقتِ الّذي بلغَ فيه عليّ أعتى مراحِل القسوة وهو يخبِرُها بكلّ الأمور الّتي تؤلِمُها، كانَ أشبَه بشخص يتوقُ لوضعِ الملحِ على جراحِك لكنّه يتّخذ قتلَ الجراثيمِ ذريعة من أجل ذلك.

ظلّا على هذه الحال يتأمّلان بعضَهما، تأكّد عليّ من أنّها عنتْ لهُ أكثرَ ممّا ظنّ يومَ تخلّيه عنها، وأدركتْ أريام أنّ مجرّد إطالتِها النّظرَ إليه هي خيانة، حينها غضّت بصرَها قاطعة شريط الذّكريات الّذي طفق يُعرضُ في مخيّلتيهما، عندئذ أخرجَ عليّ من جيبِه رسالة احتفظَ بها من أجلِ يومٍ كهذا، لم يكن يعرفُ متى بالضّبط لكنّه كانَ موقنا أنّهما سيلتقيان مجدّدا، أرادَها أن تعرفَ بعضَ الأمور عنه، تلكَ الأمور الّتي تساءلتْ عنها دوما، كانَ غامضا جدّا طيلة المدّة الّتي جمعتهُما، لمْ يخبرها عن

سبب نظراتِه الحزينة، تهرّب دوما من الجواب، وحينَ كان يعقدُ العزمَ على ذلك كانَ الجوابُ يهربُ من بينِ جنبيه... الجواب وهُو، كلّ منهما كانَ يتحاشى الآخر! أعطاها الرّسالة وقال:

-لديّ طلبٌ وحيد قبل انصرافي...

-ما هو؟

-احتفظي برقمِ هاتفي، هذا طلبي الوحيد!

لم تعرفْ أريامْ ما عليها فعلُه، ستندمُ إن قبلتْ وستندم إن رفضت، لذلك قبلتْ فحسبْ قبل دخولِها إلى غرفة الطّبيبة المناوبة... خرجتْ بعدها إلى ساحة المستشفى، كنتُ هناكَ بدوري أخونُها مع الذّكريات، لم تستطِع أن تخفيَ توتُّرَها بعد لقائه، ولم أستطِع أنْ أظهِرَ لجاجتي لمعرفة ما حصلَ في الدّاخل، قرّرتُ الوثوقَ بها منذُ فترة... أحاولُ فعلَ الأمر الصّائب هذه المرّة.

بعد عودتِنا إلى بيت أحمد وانصرافي، استلقتْ أريامُ على سريرِها ثمّ فتحتْ رسالة عليّ وراحت تقرأها، لقد أبكاها سابقا، وها هي رسالَتُه تبكيها مجدّدا:

"لا أذكُرُ أنّي كنتُ سعيدا بحذائي المهترئ، كنتُ سعيدا فقط لتأكّدي أنّه سيصمُدُ إلى نهاية السّنة بعدَ تصليحِه للمرّة الرّابعة، ولأنّ الإسكافي فرشَ باطنَه ببعض الجلد، كمكافأة منه لي على كوني زبونا وفيّا، لم يدركْ أنّ سبب عودتي هو العمولة المنخفضة الّتي يطلبُها وصبرُه عليّ حينَ أكونُ في ضائقة، ربّما هذه هي سعادة الفقراء الّتي يتحدّثون عنها، لا أذكُرُ أنّ إحداهنّ أغرمتْ بي خلال تلك السّنين، الحبّ ليس للفقراء، الأغنياءُ ومتوسّطو الحال بصفة أقلّ وحدهم من حقّهم أن يستمتعوا بحبّ الآخرين لهم، آخرُ فتاة شعرتْ بالحبّ اتّجاهي، شعرتْ بالحبّ كذلك نحوَ حذاءٍ جميلٍ بينَما كنّا نمشي سويّا، كنتُ جمعتُ سلفا مبلغا كافيا لشراء حذاءٍ لي، بعدَ شهورٍ عديدة من الصّبر على كلّ ما أشتهيه، بل صبر على ما أحتاجُه، اشتريتُ لها الحذاء، واتّصلتُ بها لأخبرَها أنّي أودّ رؤيتَها، فلديّ شيء ما أنوي إخبارَها به، قالتْ أنّها تريدُ إخباري بشيء ما أيضا!

جاءت إلى الموعد... كانتْ ترتدي الحذاء نفسَه الّذي أودّ أن أهديها إيّاه، جلستْ كأنّ تحتَها الأشواك، على الأقل كانتْ تمتلكُ بعضا من الضّمير الّذي أنّبها وهي تخبرني أنّ علاقتَنا انتهتْ، يبدو أنّها شعرتْ بالحبّ اتّجاه من اشترى لها الحذاء أيضا! ربّما هو نفسُ الشّخص الّذي اشترى لها السروال والقميص الجديدين وهذا الخاتَم الّذي لمْ أرَهُ على يدِها من قبل، كانت تخبرني سابقا عن كلّ جديدٍ يحدُث

معَها، حتّى أنّها أخبرتني ذاتَ مرّة أنّها وجدتْ قطعة خبزٍ مرميّة في الطّريق، أماطتها بعدَ أن قبّلتها، يبدو أنّي أحقرُ من قطعة الخبز تلك... فهي لم تقبّلني مرّة أخيرة، قبلَ أن تميطني عن حياتِها.

جمعتُ كثيرا من الذّكريات، كمن يحتطبُ استعدادا للصّقيع، لكنّي أدركتُ أنّ جمعَها كانَ متعة آنيّة، لأنّ دفأها لن ينفعَك في الأيّام الّتي بعدها، الأمرُ شبيه بأكلِ الكثير من المأكولات الفاخرة حدّ التّخمة، بعدَ أيّام حين تأكُل طعامَك الاعتيادي، لن تشعرَ بلذّتها في فمك، حينَ تحاوِلُ الاحتفاظ بالذّكريات من أجل غد، فكلّ ما تفعَلُه هو الانشغال عنْها، الذّكريات لا تختلفُ كثيرا عن النّخيل، الأولى لا تعيشُها إلّا في لحظَتِها والثّانية لا تعيشُ إلّا في مَناخِها، قد تنقُلُها قربَ شاطئ البحرِ للاستمتاع بها، لكنّها لن تعطيكَ تمرا بالتّأكيد، ستستمتِعُ بما تظنّ أنّها عليه أو بما كانتْ عليه، تماما كالابتسام عند تذكّرك شيئا جميلا صار من الماضي.

أنا اليومَ أبتسمُ حين أتذكّرها تمسِكُ بخدّها بعدَ أنْ صفعتُها وبصقتُ في وجهها، ثمّ عدتُ وحملتُ الحذاء الّذي اشتريتُه من أجلِها، أعدتُه إلى المتجر واشتريتُ حذاء جديدا لي، هذا أكثرُ تصرّفٍ لم أشعر بالنّدم عليه، لأنّها أوّل مرّة صرتُ فيها غنيّا، ولم أشعرْ بسعادة الفقراء مجدّدا!

حين التقيتُكِ، أعدتِ لي الإيمان بأنّ هنالك من تتجاوُزُ نظراتهم أشكالَنا، تذكرين؟ كانَ يوما صيفيّا في زقاقاتِ قريتكم حيث عرضتِ عليّ المساعدة وعرضتُ عليك قلبي مموّها برقم هاتفي، لقدْ أحببتني رغمَ أنّك ظننتني عاطلا عن العملِ كما أوهمتُك، أعتذرُ على إيلامك... أريام!"

الفصل اثنان وعشرون

واصلت خالتي ديهيّة قاصّة علينا آخر الفصول:

كانَ أولمك سعيدا بما يجري، أخيرا عاد العفريتُ موايَ كما كانَ يأمل، بإمكانِه الآن جعلُه يدفعُ ثمنَ خيانتِه له كما يعتقد، الكائنُ الوحيدُ الّذي أحبّه الشّيطان هو نفسُه الكائنُ الّذي صنَعَ منهُ شيطانا، هو إلى اليومِ لا يفَهَمُ سبب خيانة الفزّاعة له، الأعجبُ أنّها لم تكنْ ملكا له يوما، لكنّه يومَ قرّر أنّه يحبّها لم يعدْ ثمتَ من احتمال يلقي بها في أحضانِ غيرِه، الحبّ قادرٌ على توليدِ كلّ هذا الشّرّ، يكفي أن تسمَح لمشاعِرك باستغلال الظّلّ الّذي ينتُجُ عن سطوعِ الحبّ على القلب، هناكَ أينَ تعشّش بذور وطفيليّاتٌ تنتظرُ فرصتها للبزوغ.

لا ينوي أولمك مجابهة موايَ والعفاريت العظمى بقوّته وحدها، فحينَ ذلك سيكون خاسرا بالتّأكيد، لدى الشّيطانِ جيشٌ من المخلوقاتِ المرعبة، قبل مئات السّنين أعدّ كلّ شيء، من بين هذه المخلوقات "بورجيلة"، له ساقان طويلتان بشكلٍ غير اعتياديّ ووجهٌ بدون عيونٍ ولا أنف أو ثغر ولا أيّة ملامح، جسمُهُ وأطرافُه أشبهُ بخربشة طفلٍ صغيرٍ بقلمٍ أسودٍ داكن، يبدو وكأنّه يرتدي بذلة كلاسيكيّة سوداء، يتغذّى على مخاوفِ المخلوقات الأخرى، تعاونَ خلال القرونِ

الماضية مع "بوشكارة" عفريتِ الكوابيس، ساعدَهُ في تخبيئها في الكيس المحمولِ خلفَ ظهرِه دوما، كانتْ مهمّة بوشكارة هي حفظ الكوابيس الفائضة في الكون، ففي حالة زيادتِها سيختلّ توازنُ الأنفس ويتلفُ العالم، إلى غاية اليومِ أبدى بورجيلة تعاونَهُ، لكنّه اليومَ سيختارُ الجانبَ الّذي انتمى إليه دائما، جانب سيّده أولمك، سينشُرُ الرّعب في نفوسِ خصومِه ويستخرِجُ أعتى كوابيسِهم، بورجيلة هو الجنديّ المكافئ لبوشكارة من جنودِ العفريت موايِ، هنالِكَ أيضا "النّفناف" هو معروف في العوالم بـ "النفناف بولكناف"، مخلوقٌ مرعبٌ آخر، رقبتُه طويلةٌ جدّا ورفيعة، شعرُهُ يشبِهُ مكنسة السّاحرة ومنسدلٌ على وجهه، منخارا أنفِه يسعان كلّ رياح الكون، كلّ العواصِفِ والأعاصير في الكون تنتهي إليه، لتنتهي باستنشاقة واحدة من منخاريه العجيبين، هو المسؤول عن إطفاء الشّموعِ الموضوعةِ قربَ النّوافذ في اللّيالي المظلمة، يولِجُ رقبَتَه خلالَ النّوافذ بسرعة عجيبة ويطفئها بزفرة خفيفة، هكذا يسمَحُ لبقيّة مخلوقات الّظلام بالولوج واستيطان الظّلمات الموجودة في أركانِ البيوت، النّفناف هو المكافئ للعفريتِ العظيمِ آبانوخ من جنود موايِ، أمّا المكافئ للعفريت "شبرير الضّحّاك" هو "البرّاح"، مخلوق مظلِمٌ ينامُ بينَ النّقيضين، بين الغضب والرّضى وبين الظّلّ والنّور وبين النّهاية والبداية، وهي الأماكنُ الّتي يزورُها شبرير عفريت الخريف معلنا بداية ونهاية

المتناقِضات، لوْ أنّ شبرير الضّحّاك لم يزر أرض القيامة في يوم النّبوءة، لما تمكّن أڤمد من بعثِ موايَ مجدّدا، لكنّ كلّ شيءٍ كانَ قدرا ولم يكنْ ثمتَ من مفرّ، السّاحرة أريناس لم تكنْ تدري تماما ما سيحدثُ، لكنّها علمتْ أنّ الأمورَ ستنتهي بشكلٍ سيّء، كلّ ما حاولتْ فعلَه هو اختيار الطّرق الأخفّ ضررا، التيقّن من النّهاية لا يعني اعتزال الحياة، فلو فكّر الجميعُ في حقيقة موتِهم لخلصوا إلى أنّه لا فائدة من العيش، لكنّهم في معظم الأحوالِ يحاولون قطفَ بعضَ الأزهار الّتي تنمو حول سُبُلِهِمْ أثناء خوضها، ليجدوا إكليلا يزيّن قبورَهم عندَ الوصول.

أثناء مراقبة كلِّ شيء من خلال عين تيثريت النّافذة، شعرتْ السّاحرة العظمى أريناس أنّ شيئا ما أو روحا ما تراقِبُها، كانتْ هالة قويّة لدرجة أنّها عجزتْ عن الاختباء، ألقتْ أريناس كلّ التّعاويذ الّتي تعرفُها ونثرت الملحَ في الأرجاء، لعلّ هذه الرّوحَ أو الشّيطان يكشفان عن نفسيهما، لكن دونَ فائدة، كانتِ الهالة تزدادُ شيئا فشيئا بمرور السّنين، حتّى أدركتْ أريناس أخيرا أنّ الهالة صادرة عن البلّورة نفسِها، عندئذٍ استدعتْ أريناس عفريتَ الزّمكان "قدّاش" الّذي تعاونتْ معهُ لزمنٍ طويلٍ، طلبتْ منهُ أغربَ طلبْ، لقد صنعتْ بطاقةَ الغفران، هي تمتلكُ البطاقة الوحيدة في الكون، لكنّ ثمنَ استعمالِها هو روحُها.

رسائل مليئة بالفراغ

التقيتُ لأوّل مرّة عائلة ميلين، كانوا في غاية الطّيبة ورحّبوا بي كلّ التّرحيب، قبلَ قدومي إلى هنا كنتُ أخبرتُ أريام أنّي أنوي الحديثَ إلى عائلتِها بشأن خطوبتِنا، ولم أجدْ فرصة أفضلَ من الحديث مع عمّها يغموراسن، كنّا ليلتَها قد تناولنا العشاء وجلسنا سويّا، أنا وأحمد وعمّي يغموراسن.

-في الحقيقة يا عمّي لديّ شيء ما أودّ الحديثَ بشأنه...

-تفضّل يا بنيّ.

-لقد التقيتُ بابنة أخيك أريام، وأودّ خطبتَها من أبيها.

أجابَ عمّي يغموراسن بهدوء وثقة نافضا عنّي الإحراج الّذي بدا جليّا في نبرتي:

-ما دامتْ نيّتُك في ذلك صافية فسيفتَحُ الله لكَ بكلّ خير بإذنه، سأتحدّثُ إلى أخي في الموضوع وسيكونُ من الجيّد أن ترافقني.

أبديتُ موافقتي واستعدادي على استحياء بينما بدا أحمدُ مشغولا، من السّهل حدوث ذلك، تكفي أحمدَ كلمةٌ ليغوصَ في عالِمِه الخاصّ، خاطبَه عمّي يغموراسن وقد لاحظَ مثلي شرودَه:

-شارِكنا ما تفكّر فيه إن أمكن يا أحمد!

ردّ أحمد:

-في الواقع، كنتُ أفكّر في قولكَ الّذي يشير إلى أنّ صاحبَ النّيّة الصّافية أقربُ للقاء الخيرِ من أن يلقى شرّا... لم تُثبت الأيّامُ أمرا مماثلا حتّى، إنّما أعطتْ نهاياتٍ مخيّبة لظنوننا في كثيرٍ من المرّات، لكنّ الأكيدَ أنّنا عندما نتأمّلُ التّجارب والأشياء فإنّنا نبصرُ فيها تلميحاتٍ تغذّي ظنّنا بحتميّة الجزاء المكافئ للعمل.

ردّ عمّي يغموراسن:

-كيف ذلك؟

-مثلا، لو تأمّلتَ الطّبيعة المستوية كشكل الأرض والشّمس والكواكب لوجدتَها دائرية، أتدري ما السّبب؟

صَمتْنا منتظرينَ الاختلاف والابداع الّذي تحمِلهُ إجاباتُه، استفاض قائلا:

-لطالما ظننتُ أنّ الله خلقَ الأرضَ كرويّة ليخبرنا أنّ الأحوال تتقلّب وتدور وأنّنا في النّهاية سنعودُ إلى الحفرة الّتي حفرناها أو الشّجرة الّتي زرعناها بعدَ أن نقطعَ شوطا قصرَ أو طال أمده.

في هذه الأثناء اغتنمتُ الفرصة للقدحِ في اعتقاده، في الواقعِ لم أفعل ذلك لأزعِجَه إنّما... إنّما لأنّه يحبّ ذلك، يقول أنّ الجدال يعرّي الخرافة ويغذّي الحقيقة.

-ماذا لو ثبتَ أنّ الأرض ليستْ حقّا كروية، هل سينهار اعتقادك؟

فكّر قليلا ثمّ أجابني:

-أظنّه سيتكيّف فحسب.

-أو يقودُكَ لاعتقادٍ قريبٍ منه، البشر يحتاجونَ للاعتقاد بشيء ما... في أدنى مراحِل الاعتقاد يحتاجُ المرءُ شخصا يؤمن به ليخبرُه أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

قالَ عمّي يغموراسن:

-حتّى لو أثبتوا أن الأرض ليستْ كرويّة فسيجدُ المرءُ في دربِه حفرة أو شجرة مماثلة لتلكَ الّتي تسبّب فيها ذاتَ يوم، الخطيرُ في الأمرِ أنّه يُمضي حياتَه

جاهلا بحقيقة ذاته، تتناوبُ أفعالهُ بين الاحسان والاساءة وحينَ لا تكونُ الغلبة لأحدهما ينتهي به الأمر بالشكّ في حقيقته أخيرا، هل هو طيبٌ أم شرّير؟

أجبتُه حينَها:

-معكَ حقٌّ يا عمّي، ويزداد الأمرُ خطورة حينَ يصبحُ كلّ شيء ضبابيّا وتبدأ تساؤلاتُه الأعمق بالطفوّ، هل هو طيبٌ فعلا أم أنّه يظنّ نفسَه على صوابٍ كأيّ شرّير آخر؟

أجابَ أحمد:

-إن أراد الطيّبونَ معرفة قابليتهم للشّر فعليهم مراقبة أنفُسِهم حينَ يُمنحُون الحرّيّة والسُّلطة، أمّا الأشرار فلا يتساءلونَ من الأساس.

قال عمّي يغموراسن:

-الطّيبون والأشرار... الفرق بينَهمْ يكمن في انعكاس ما يتلقّونه من تعاليم وتوجيهات ومعاملات في إدراكهم ونظرتهم وتصرّفاتهم مع الغير.

ردّ أحمد:

-يذكّرني هذا بنظريّة ما...

-تقصدُ نظريّة الأب الطّيّب والأبّ الشّرّير؟

-تماما، فلنفترض أنّ لدينا أخوين عاشا في ظروفٍ مآديّة سيّئة ومعاملة قاهرة، الأب الشّرير سيقرّر أن يعيشَ أبناؤهُ نفسَ ظروفِه الّتي عاشَها، أمّا الأب الطّيّب سيحرص على تجنيبِهم ما عاناهُ في طفولَتِه.

تدخّل عمّي قائلا:

-الأمرُ ليسَ دقيقا، فكثيرا ما يكونُ منطلقُ الأبِ الشّرير مخالفا لظاهرِه ومبنيّا على تصوّره للحياة ونمطيّة النّضج في إدراكِه، كأنْ يقرّر تعريضَ أبنائه لظروف مماثلة لظروفِه كي يغدوا أكثرَ اعتمادا على أنفسهم!

بعدَ نهاية حوارِنا، كنتُ أشعرُ بنور الحكمة يستأذنُني ليكشفَ بعضَ زوايا ذكرياتي المعتّمة، كلماتُ عمّي يغموراسن الأخيرة ظلّت تجولُ في رأسي، تذكّرتُ معلّمي الّذي مسحَ على رأسي بعدَ أن خالفتُ أوامِره وكتبتُ بقلم جافّ، ما كدتُ أنساهُ هو أنّه نفسُ الشّخص الّذي صفعني، يومَها وَعَدَنا بإخراجنا إلى السّاحة لممارسة الرّيّاضة، لكنّ الوقتَ مضى سريعا ودقّ جرسُ الخروج، همستُ عندئذ لأحد زملائي قائلا: "كذب المعلّم علينا!"

لم يلبث زميلي أن أخبر المعلّمَ حالا وعندها صفعني المعلّم بقوّة، لم أكنْ أيّامَها أحمي خدّي، ظننتُ في صغري أنّ الشّجعان يسعدونَ بتلقّي الضّربات، لكنّي يومَ شاهدتُ عينيّ ابن عمّتي وقد أصيبتا بالحوَلْ جرّاء صفعة تلقّاها فهمتُ أن الحمقى فقط من يخلطون بينَ الشّجاعة والغباء، حميتُ يومَها خدّي لأوّل مرّة، ولأنّ الشّجاعة كقطرات ماء الحنفيّة لا تنزلُ فرادى بل تسحبُ بعضَها تواليا صحتُ فيه: " ذاتَ يومٍ ستمرّ برجلٍ غريب وسيسألك:

"لم صفعتني حين كنتُ طفلا صادقا وكنتَ رجلا كاذبا؟"

توقّف قليلا ناظرا إليّ، كنتُ موقِنا أنّ كلماتي أيقظتْهُ من غفلتِه إلى أن صفعني مجدّدا على الخدّ الآخر موقظا إيّاي من مثاليّتي، ربّما شعرَ أنّه حقّق العدل والتّوازنَ بهذا، يومَها زُرِعتْ في رأسي فكرة عضّ اليد الّتي تلطمني وراحتْ تكبُرُ معي إلى أن قمتُ بعضّ يدِ زميلي في الثّانويّة، المشاعرُ القويّة لا تموت بل تتحوّل إلى أفكار امتنان أو انتقام، أعرفُ ذلك لأنّي وبشكل مفاجئ أشعُرُ بالغضب من أمور منتهيّة من الماضي أتمنّى لو تصرّفتُ بشكل مختلف حيالها... مررتُ بمعلّمي مرّات عديدة بعدَ نضجي لكنّي لم أكلّمهُ مجدّدا... ربّما لأنّي شرّير، انعكاسُ تصرّفه

معي لم يأخذ مكانا صحيحا في فهمي، أظنّ أنّه صفعني لأنّي أسأت الظنّ به، كلّما زاد إيماني بهذا التّفسير الأخير الّذي يعذِر تصرّفه زاد اعتقادي بطيبتي!

طولُ مكوثي بالمجرْ أثّرَ على تجربتي في النّضج، كم أنا محتاجٌ لأحاديث تجمعني بأشخاص مثلَ أحمد وعمّي يغموراسن، الصّمتُ قويّ فقط حينَ يكونُ هنالك من يتحدّثون، أمّا الصّمتُ في منفى عن البشر فهو شبيه بتواضُعِ شخصٍ لا يملكُ ما يتكبّر به على الآخرين، الصّمتُ في المنفى! أقسمُ أنّه يصلح أن يكونَ عنوانا لرواية فلسفيّة بديعة، يذكّرني بشيء ما حدث غير بعيد من الآن، خلال السّنة الأخيرة في الغربة وقتلا للفراغ قمتُ بجمعِ أشخاصٍ يؤمنون بنظرتي إلى الأمور، كوّنّا مجموعة للتأمّل، كانَ الهدفُ منها الاجتماع معا في الواقع وعلى المواقع أيضا، كتبنا أسماءنا على قائمة بقلمٍ دون حبر، وعلّقناها على مدخلِ القاعة، أسماؤنا الشّفّافة تغذّي هدف المجموعة، كلّ ما نفعلُهُ هو الجلوس والنّظر لبعضِنا وإرسال رسائل فارغة محاولين فهمَها، كان الجميعُ يُشارك بناء على توقّعه بمحتوى الرّسائل، بالنّسبة لنا لم تكن الرّسائل فارغة، بل كانتْ مليئة بالفراغ فحسب، لذلك تقنيّا كانَ كلّ واحدٍ منّا يدير حوارا في موضوعٍ مختلف عن مواضيع الآخرين، في النّهاية كنّا نشعُرُ أنّنا أدرنا حوارا شيّقا عن موضوعٍ مشترك! مجدّدا كنّا كالمجنون الّذي يحدّثُ نفسَه، ولا أدري هل استفدنا من أنفسِنا أم استمتعنا

بالاختلاف عن الآخرين فحسب، الأكيدُ أنّنا كلّنا غدونا كتّابا أو فلاسفة فاشلين بعد شهور، نكتبُ عن الأمور الّتي لا يقرأها أحد أو نقرأ النّصوص الّتي لم يكتبها أحد، المثير في الأمر أنّهم طردوني من المجموعة بعدَ أنْ اكتشفوا االنّجاح الّذي كُتبَ لروايتي "جواب بين نظرتين" صدفة، يومها أرسلوا لي رسالة طويلة فارغة، كانَ خطابا شديدَ اللّهجة! بعد ذلكَ تمّ حذف اسمي الشّفّاف من المجموعة، بالنّسبة للأشخاص الّذين أروي لهم هذه القصّة، تكونُ ردّتهم مليئة بالدّهشة، ويتساءلون عن أمور كثيرة آخرُها:

"كيفَ عرفتُ أنّ اسمي حذفَ لّما نظرتُ إلى القائمة؟"

أمّا أنا فلا يزال يثير تساؤلي أمرٌ وحيد:

"كيف اتّفقوا على حذفي منها دونَ أن يلفظوا أو يكتبوا حرفا واحدا؟!"

بطاقة الغفران الخاصّة بأريناس، تقدّمها الصدفة الكونيّة للسّاحرات العظيمة من أجل تغيير حدثٍ كونيّ مقابلَ تقديم روحها، تبرز البطاقة الطّقوس السبعة للغفران: عهد الدّم–نذر الرّوح– الطّلاسم–عاصفة النّهاية–عيون السّاحرة المظلمة– شرب الدّماء السّوداء– الوريث.

امتنان

تلقّت أريام مكالمة هاتفيّة، كانت قدْ أعدّت نفسَها للخروج سلفا، من الواضحِ أنّها كانت في انتظار المكالمة، لم يكنْ مكانُ اللّقاء بعيدا لذلك فضّلتْ السّيرَ على الأقدام، الطّريقُ أمامها متعرّجة بتواترٍ عالٍ، تساءلت في هذه اللّحظة ذاكَ السّؤالَ الّذي أشعرَها بالنّدم إلى درجة انهمرتْ فيها دموعُها:

"كيف يمكنُ للمرء أن يمشي مستقيما في طريقٍ متعرّجة؟"

كانَ سؤالُها في محلّه ولم يكن مجرّد عبث، الاستقامة قيمةٌ سامية يقالُ أنّها تهدي للصّوابِ دوما، لكنّ الّذين يمشون مستقيمين في الطّرق المتعرّجة لا يصلون، بل يصطدمون بجدار ما يوقفهم!

وصلتْ إلى هناك، أينَ كانَ ينتظِرُها الماضي، التقتْ عليّا أخيرا، قالَ أنّه يريدها في أمرٍ مهمّ جدّا، لم تكنْ تنوي القدومَ لكنّه أصرّ على رؤيتِها وبعدَ أن وافقت رفضتْ لقاءه في المقهى الّذي اعتادتْ على الجلوسِ فيه معي، من الغريبِ أن تحفظَ ذكرياتي ولا تحفظني في غيابي! أنا الّذي أستعدُّ للتقدّم لخطبتِها على بُعدِ كيلومترات من هنا! جلسا بالمحور الدّورانيّ الكبير القريب من الجامعة.

-ما هو الأمر المهمّ الّذي تودّ أن تحدّثني بشأنه؟

-يتعلّق الأمر بحبيبك وإيمان!

أريام تتذكّر جيّدا إيمان، تلكَ الفاتنة البغيضة الّتي تركَها عليّ من أجلها...

-أفصِح!

-من الواضح أنّ لا علمَ لكِ بشيء من هذا... لا بأس، لقدْ كانَ حبيبك على علاقة مع إيمان منذ الطّفولة، كانتْ مفضّلته.

-صارت من الماضي الآن، مثلَكَ تماما.

-اهدئي قليلا... دعيني أواصل... إيمان توفّيت قبل مدّة، لمْ أكن على علاقة بها، كنّا أصدقاء فحسب!

شعرتْ أريام بالحزن المخفوقِ بالصّدمة، لكنّها حافظتْ على صمودِ ملامحِها.

-رحِمَها الله، شكرا على معلوماتك القيّمة... سأذهب الآن.

-انتظري! هناك المزيد... حبيبك هو الآخر ظنّ أنّ إيمان تخلّت عنه من أجلي لذلك بحث في ماضيَّ وعلمَ أنّنا كنّا على علاقة، فسعى للحصول عليك انتقاما منّي فحسب لا حبّا فيك!

شعرتْ أريام أنّ الأرض خسفت بها، كانتْ تحاوِلُ ألّا تصدّقه:

"لمَ يلعب هذه اللّعبة القذرة؟ أ ليسَ هو من تخلّى عنّي سابقا؟ فلنفرض أنّ ما يقولُه صحيح، أ لم يكن يجدُرُ به الاحتفاظ به فحسب؟ لمَ عليه إفسادُ حاضري؟ "

لمْ تكنْ أريامُ من تطرحُ الأسئلة، بل كانت الأسئلة من تطرَحُها أرضا وتدوسُ عليها!

تكلّم عليّ مجيبا عن هذه الأخيرة الّتي تأبى تجاوُزَ حلقِها:

-قد تتساءلين عن سبب قولِ ما أقولُ الآن بالضّبط، لأكونَ واضحا، أخشى عليكِ الارتباطَ بشخصٍ لا يحبّك، بشخصٍ يعتبِرك مجرّد معركة فاز بها.

داخلَه كانَ يدرِكُ أنّ ما يقومُ بهِ هو لعبة قذرة، فهو يدركُ أنّ ما يريدُه حقّا ليس إنقاذ أريام بل استعادَتَها! عليّ هو الشّخصُ الّذي يحاولُ المشي متعرّجا في طريق مستقيم... في هذه الأثناء نهضتْ أريام من مكانِها وغادرتْ فحسب،

شعرتْ ببعضِ الارتياح، كانتْ تشعُرُ سابقا أنّ عليّا درّة نادرة لكنّ تصرّفه الحقيرَ أشعرَها بالامتنان للابتعاد عنه حتّى وإن كانَ ما يقولُه هو الحقيقة، قتلَ لتوّه كلّ أسباب النّدم على رحيله في الماضي، رحلتْ أريام وهي تتساءل إن كانَ حبيبُها حقّا فعل ما ادّعاه عليّ، ستكونُ صدمتُها شديدة إن صدَق ذلك، لن تثقَ برجلٍ مجدّدا، هل كلّ الرّجال كاذبون؟ قدومُ أريام إلى هذا اللّقاء كانَ خطأ منها، كيف للمرء أن يسير مستقيما في طريقٍ متعرّج؟ المرء المستقيمُ لا يسير في الطّرق المتعرّجة منذ البداية!

الفصل ثلاثة وعشرون

-لقد اخترقَ بوّابة العالم السّفلي، سيكون هنا خلال لحظات!

حان الوقتُ إذن! المعركة الّتي انتظرها طويلا أولمك، الجوّ في جزيرة القيامة هادئ جدّا، الصّمت يمزّقُ الطّمأنينة، القلوب واجفة، في هذه الأثناء بدأ مواي بالغناء كما فعلَ خلال السّنوات الفارطة، صوتُه يشبِهُ الكمانَ الجهير في أفخم طبقاتِه، حين يغنّي مواي ينصتُ كلّ شيء وترافقُ غناءه نسائم الرّيح الهادئة، تتموّج الأعشاب مراقصة صوتَه وتهتزّ الأشجار، يتردّد صدى صوتِه خلف الجبال والبحار.

- إنّه لحنُ النّهاية!

همستْ أريناس لأڤمد قبلَ أن يلحظَ وجودَها قربَه.

-ما الّذي يعنيهِ ذلك؟

-يعني أنّ يومَ القيامة قد اقترب!

غنّى مواي كثيرا من أجل النّهاية، ظنّ أڤمد أنّ هذا يشبِهُ التّفكير في أمرٍ محتومٍ يفسدُ حاضِرَك بعدَ أنْ تأكّدتَ أنّه سيفسد مستقبلك لا ريب، التّفكير في أمرٍ

محتوم تماما كسقي تربة دون بذور أو غرسٍ بذور دونَ سقيها، الأمرُ لن يثمرَ يوما... نظرتْ أريناس إلى أڤمد مطوّلا ثمّ قالتْ له:

-أريدك أن تحتفظَ بهذه البطاقة وجرعة الدّماء هذه!

سلّمته جرعة من دمائها وبطاقة الغفران، كانَ من الواضحِ لها في أوّل يومٍ التقته أن أڤمد من سيكون الوريث.

-ما الّذي عليّ فعلُه بها؟

-ستعرِفُ في الوقتِ الأنسب!

خفضتْ أريناس صوتَها إلى أقصى حدّ مسموع لأڤمد ثمّ قالت:

-انتبه الآن جيّدا، سيدخلُ أولمك ومواي في حربٍ خاسرة وسيكون عليك السّفر مجدّدا إلى العالم العلوي (عالمُ البشر)، أنتَ وحدكَ من يمكِنُه إنقاذُ العالمِ مجدّدا، أنتَ الوريث!

-إذا سيخسر مواي أمام أولمك!

-سيخسرُ مواي وأولمك أمام مخلوقٍ أعتى!

أحسّ أڤمد بخشوعٍ شديد، يا إلهي! مخلوق أعتى من العفريت العظيم والشّيطان؟! استلمَ أڤمد بطاقة الغفران وجرعة الدّماء، سيسافرُ حينَ تعطيه السّاحرة العظمى أريناس الإشارة، وحدَها تعرفُ الوقتَ الأنسب لذلك.

-إنّه هنا!

صاحَ بذلك شبرير الضّحّاك، هو أوّل من يستشعر الحدود بين النّهاية والبداية، أحس باهتزازات في الالكترونات وفي الهالة الميتافيزيقية، بحثَ الجميعُ يمينا وشمالا ولم يجدوا شيئا يُذكرْ، فجأة إذا بمخلوقٍ مرعبٍ غايةٍ في القبحِ فوقَهم، عيناه جمرتان لا تنطفئان وتلفظان شررا موسوما بالحقد، الدّخان يتصاعدُ من فمه كالنّار الّتي تشتهي الوقود، أنيابُه أعظمُ ما رأوا يوما وجثّتُه عظيمة... لم يكنْ وحده، بل خلفَهُ جيشٌ كامل من المخلوقات المرعبة.

-أعلمُ أنّك غاضبٌ جدّا لكنْ هنالكَ شيء عليكَ أن تعرفَه!

تكلّم موايي محاولا مهادنة أولمك، لكن هذا الأخير انقضّ عليهِ دونَ أن يعطيه فرصة الحديث، وتوالتْ خلفَهُ جيوشُه، عندئذ أطلقتْ أريناس الحاجز، فاحترقتْ كلّ المخلوقات الضّعيفة ولم يبقَ إلّا الأبناء العظماء، ليسَ بوسعِ أريناس فعلُ المزيد، أمّا أڤمد والبعوضة "يريغيل" فهم أضعفُ من أن يدخلوا حربا بين

عفاريت وشياطين، رفعهمْ العفريت العظيم آبانوخ برماله ووضعَهم في منأى عن الصّدمات الّتي ستخلّفها الصِّدامات، سينتظرونَ الوقتَ المناسب فحسب، لسبب ما تراجَع العفريتُ أغوليد وانسحبَ من الحرب، أطلقَ بوشكارة الكوابيسَ من كيسِه المتخمِ بها، راحتْ تتطايَرُ باحثة عن ملجئ في قلوب الأعداء، أصابت البعضَ منهمْ وولّوا هاربين قبلَ أن يسحبَ بورجيلة أثر الكوابيس المتبقّية ويلغيها، وهكذا انتهى دورُ بوشكارة وبورجيلة معا، بعدها عصفَ آبانوخ بعواصِفه العاتية ورمالِه الصّلبة صوبَ جيشِ أولمك، غيرَ أنّ النّفناف في الجهة المقابلة كانَ يسحبُ الرّياح العاتية إلى داخلِ أنفِه ويحوّلها إلى نسائم خفيفة، وهكذا انتهى دور آبانوخ والنّفناف، أما شبرير الضّحاك فكان يخلخلُ طيفَ الطّبيعة بعبثِه بالنّهاية والبداية، فكثيرا ما يحسبُ العدوّ أنّه وجّه الضّربة في حينِ أنّها لم تبدأ بعد، لكن كانَ له بالمرصاد البرّاح، فهو يستوطنُ النّقيضين وكانَ يكتشفُ أيّ عبث يحصلُ هناك، وهكذا انتهى دورهما معا... لو أنّ العفاريت لم تتحوّل إلى مخلوقات مادّية لكانت الحربُ انتهت لصالحِها منذ البداية، ما يحدثُ الآن هو تبادلُ الضّربات بين الشّيطان وأقوى تابعيه ومواي وأبنائه، لو استمرّ الأمر على حالِه، ستكون حربا أبديّة، لكن هنالك ما يقلق مواي ويجعلُهُ يتعجّل النّهاية، عليهم الاستعداد لشيء ما قبلَ فواتِ الأوان!

...

أخيرا قرّرت الفزّاعة مغادرة مملكة الأدفل الّذين استضافوها لعمرٍ طويل، شكرتهم ثمّ حملتْ أبناءها الدّمى السّاحرة وخرجتْ من أرضهم لأوّل مرّة منذ دهر، الفزّاعة أو دعنا نقول تيثريت، كانت على موعِدٍ مع إينيل الّذي عرفَهُ الجميعُ بالنّاسك، أكبرُ مخطِّطٍ عرفه الكون، لقد خطّط بحذر لهذه اللّحظة منذُ عودتِه، أخيرا... تسلّل نصفا روحيهِما الّذين بقيا محتجزين في العالمِ الآخر، أخيرا سيتمكّنان من العودة إلى شكليهما وهيئتيهما الطبيعيتين. يقالُ أنّ النّمر لا يفترِسُ الغزالَ بدافعِ الكُره، إنّما هو تصادمٌ حتميّ، كلّ جنسٍ يسعى للاستمرار وهذا يكونُ على حسابِ أجناسٍ أخرى أحيانا.

وقفتْ تيثريت وعانقت إينيل وحولَهما أبناؤهما الدّمى السّاحرة، بدأتْ أرواحُهم تكتمل، في هذه اللّحظة حدثَ أحدُ أسوء المشاهد وأكثرُها رعبا، انشقّت الأرض عن النّعش! إنّها المصيبة الوحيدة الّتي لم تتحدّث عنها النّبوءات، لم يجرأ حاملُوها على الحديث عنها لهولِها، ضربَ زلزال الأرض أثناء انفتاح النّعش، لا بل هي الأرض ترتجفُ رعبا، كلّ شيء في الكونِ يرتجِفُ الآن، هي لا تخرجُ إلّا لإنهاء حقبة ما، لقد... لقد خرجتِ المومياء!

لفّت المومياء عائلة إينيل باللّفائف البيضاء بينَما كانتْ أبصارُهمْ مأخوذة بعيدا، خرجتْ النّعوش السّبعة من الأرض ووجلَها سبعتُهم دونَ وعي منهم بما يحصل، فجأة انغلقتْ النّعوش وغاصت في الأرض مجدّدا، لم تختفِ إلى الأبد، لكن يُقالُ أنّ الّذينَ يعودون، لا يعودونَ نفس الأشخاص، حينَ يذهبُ شخصٌ ما إلى هناك يحضرُ معَه أشياء لا ينبغي لها أنْ تحضرَ إلى هذا العالم! تحرّكتْ المومياء إلى أقرب القرى منها، وفي طريقِها التهمتْ كلّ ما ينبضُ بالحياة، كانتْ تلتهِم الأرواح بشراهة، ذبلتِ الورود ويبِست الأشجار وجفّت البحيرات، بعدَ لحظات، صارتِ القرية خالية من كلّ صوت، لقدْ سحبتِ الحياةَ حتّى من الرّيّاح، ومن الألوان... لحسن الحظّ أنّها اكتفتْ بالقرية، لأنّه لم يكنْ عليها إعادة سوى سبعة أشخاص من المخلوقات القديمة الجبّارة، لو زادَ عددُها لاضطرّت لالتهام المزيد... من حقّ العالمِ أن يشعُرَ بالرّعب الآن!

وقفتْ المومياء على القبور ثمّ تقيّأت الدّماء من أحشائها، خرجتِ النّعوشُ مجدّدا وانفتحت، لم يكن بداخِلها سوى الرّماد، فجأة تحرّكت قطرات الدّم وامتزجت مع الرّماد، تشكّلت كرات من الطّين وبدأت تتشكّل أطرافُها ورؤوسُها وملامِحُها، وراحت تغدو أكبر فأكبر إلى أن تشكّلت مخلوقات عظيمة الحجم، عيونُها كعيون البشر غيرَ أنّها كبيرة، يشغلُ بؤبؤها جلّ مساحتِها، ملامِحها

مبتسمة باستمرار ولا تتغيّر، وجنتاها بارزتان... لقد عادتْ المخلوقات الجبّارة مجدّدا! الآن ستسعى لإعادة نسلِها، لاستعادة إرثِها الّذي ضاعَ منها، لكنّها من أجلِ ذلك تحتاجُ إلى ضمّ أرواحِ المخلوقات الموجودة في الكون إليها، إينيل وتيثريت وأبناؤهم رغمَ طيبَتِهم، هم الآن أشبهُ بالنّمر الّذي يصطاد الغزال لأنّه لا يملكُ خيارا آخر... عادتِ المومياء إلى الأرض، وتنفّسَ الكونُ مجدّدا!

صاحبُ الملامِح الممسوحة

الجوّ منعشٌ جدّا، يا له من طقسٍ رائع للخروج وللنّوم وللأكل ولفعل كلّ شيء، في الواقع هو مناسبٌ لعدم فعلِ أيّ شيءٍ أيضا، الأمرُ ليسَ غريبا فالطّقسُ نفسُه حينَ يسوءُ يغدو غيرَ ملائمٍ لفعلِ أيّ أمر... اليوم مميّز جدّا هنا، إنّه الثاني عشر من يناير ما يعني عيد رأس السّنة الأمازيغي، يحتفلُ به المواطنون في جميع الولايات، غيرَ أنّ مظاهرَه أشدّ تجلّيا هنا، بالنّسبة لي، فقد امتلكتُ مزيدا من الأسباب الّتي تجعلني أحتفي بهذا اليوم... ارتدى عمّي يغموراسن "قشّابيّته" وانطلقَ بنا إلى إحدى البيوتِ المجاورة، كنتُ سعيدا جدّا بهذا البرد إلى درجة تخيّلتُ فيها أنّه اشتدّ ليبديَ ترحيبَهُ بي، المزاجُ يشبِه النظّارات الشّمسيّة الّتي تسبِغُ كلّ ما تراه عيناكَ بلَونِها، كنتُ أمشي وأتخطّى الحشراتِ الّتي أصادفُها بين الحين والآخر على الأرض ثمّ أنظر للعصافير تمرحُ وأشعرُ أنّها تلقي التحيّة الصّباحيّة علينا، لأوّل مرّة تجعلني امرأةٌ أفكّر فيها بدلَ استرجاع ذكرياتِ إيمان، ما شدّني إلى أريام هو اهتمامُها الشّديد بنظرتي إلى الأمور، أذكرُ يومَ سألتني:

-عمّ يبحث الرجال؟

-عن النّساء!

-وعمَّ يبحث شخص حكيم؟

- هل هو رجل؟

نظرتْ إليّ مدركةً ما أرمي إليه، كانتْ حادّة الذّكاء ولم تحتج دائما إلى سماع إجابات، اكتفتْ بالهمهمة:

-مم فهمت...

نظرتُ إليها بدوري وقلتُ لها مداعِبا:

-ذاتَ يومٍ قال شخصٌ حكيم: "يا إلهي! ما هذه الرّائحة؟!"

ظلّتْ أريام تنظر إليّ منتظرة البقيّة، حينَها سألتها:

-ماذا؟

-أ هذا كلّ شيء؟

-نعم، هذا كلّ شيء!

انفجرتْ أريام ضاحكة لبضعِ ثوانٍ واضعة كفّها على يدي والآخر على بطنِها، كانَ ضحكُها مضحكا بالنّسبة لي أيضا، استغرقنا ثوانٍ أخرى لنهدأ مجدّدا وعندئذ قالت لي:

-يا لها من حكمة فائقة... فهمتُ قصدك!

-وما الّذي فهمتِه؟

-الرّجلُ الحكيم يبقى رجلا في النّهاية، ما يخيّب آمالناَ أكثرَ من الأشخاص ذاتِهم هو ما نتوقّعُه منهم.

-واو! هل عنيتُ بدعابتي كلَّ هذا حقّا؟

-وهل عنيتَه؟

نظرتُ إليها للحظات ثمّ قلت:

-تدرين... أظنّ-إن لم تخنّي الذّاكرة-أنّ الشّخصَ الحكيمَ كان امرأة!

-هذا يعني أنّ الرّائحة كانتْ تنبعِثُ من جوارِبك، أعانَ الله والدتك...

-رحمَها الله.

-آسفة إن جعلتكَ تسترجِعُ ذكريات حزينة.

-في الواقع كانتْ سعيدة وهذا مثير للحزنِ حقّا... لكن ليسَ اليوم فأنا أشعر أنّي بخير.

صمتنا قليلا وبدتْ نادمة على إيقاظ ذاكرتي، عندئذ قلتُ لها:

-بعدَ التّفكير مجدّدا، أظنّ أنّ من قال ذلك هو رجلٌ ثمل، ربّما اختلطَ عليّ الأمر قليلا، أنا لا أذكر...

ضحكنا باستمرار في كلّ مرّة جمعَتنا الأحاديث اللّطيفة، لم أكنْ معتادا على الإجابة، طولَ حياتي طرحتُ الأسئلة الّتي لا إجابات لها سوى الأسئلة، السّؤال هو إجابة شرهة تتلمّظ متوقّعة المزيد، في كلّ مرّة وجّه إليّ سؤال من طرفِ أحدهم أعدتُ طرحَ السّؤال عليه، حتّى أنّي تحصّلتُ على صفرٍ في ذاكَ الواجبِ المنزليّ الّذي أعطانا إيّاه أستاذ العلوم الاجتماعية في السّنة الثّالثة من تعليمي المتوسّط، درسنا أيّامها درسا معنونا بالجهل والأمّية في مادّة "التّربية المدنيّة" وكانتْ أوّل مرّة يعترضُ فيها أستاذ أمامي على هذا العطف الظّالم، حيث فسّر ذلك بأنّ الأمّية تعريف يناقض في معناها المعرفة والتّعلّم، بينَما الجهلُ هو جزءٌ من عمليّة التعلّم وحالة معرفيّة تسبقُ التعرّف على المجهول، أتذكّر شرحَ صديقي أحمد المذهل

للأمر، حسب زعمِه يمكن القول أنّ الجهل هو العدد "س" الممكن إيجاده في المعادلة، أمّا الأمّية فهي خوارزميّة حلّ المعادلة، لا أدري إلى أيّ مدى وُفّق في هذا الإسقاط إنّما يُحسب له هذا التّفكير المختلف.

لم أكنْ مشاغبا كما قد يتبادر إلى ذهن أحدِهم حينَ أقصّ عليه هذه الفصولَ من حياتي، إنّما الأمرُ يشبِه زيارة المقبرة أين يخالُ المرء أنّ الجميع أموات أو زيارة المستشفى أينَ يخيّلُ إليه مجدّدا أنّ الكلّ المرضى، الشّاهد في المثل الّذي ضربتُه أنّ قصّ الحوادث النّادرة تباعا يجعلُ السّامع يظنّ أنّي عشتُ حياة نادرة ككلّ بينَما لم يحدث ذلك إلا في بضع مرّات بالنّظر إلى السّنين الّتي مرّت من عمري، كانَ موضوع الواجب المنزليّ: "كيفَ نقضي على الجهل؟" وكانَ أمامي أسبوعٌ كاملٌ لتسليمِ الإجابة، غيرَ أنّي اخترتُ اللّحظة الأخيرة وكتبتُ على الورقة قبل تسليمِها: "فلنتساءل أوّلا، كيف لم نستطع القضاء عليه؟"، وداخلي ردّدتُ يا لهُ من منطقٍ غبيّ! نقضي على الجهل؟ الجهلُ دائما ما يفلحُ في القضاء علينا، أ لمْ تقنعهمُ المرّات الكثيرة الّتي نعجز فيها عن إيجاد علاجٍ لداء مستعصٍ أو إصلاحِ قطعة تالفة من آلة ما؟

رغمَ كلّ حماقاتي، كانَ الأمرُ مقبولا إلى حدّ ما حينَ فسّره بعضُ أساتذتي على أنّي شخصٌ متفاصح؛ وفسّرهُ آخرون على أنّي أشاغبُ لأنّي في مرحلة المراهقة... الغريبُ اليومَ أن تغدوَ أريام مثلي... تتفادى الأجوبة، هي ليستْ تتحاشاها من منطلق فكري أو نفسي مثلي، لا تتحاشاها لأنّها تظنّ أنّه بالوصول إلى الإجابات واعتبارِها خطّ نهاية ستنتهي الأفكار وتدفن الاختراعات ويردى الابداع، أريام تفعلُ ذلك لمجرّد أنّي أفعلُه، حينَها أدركتُ إلى أيّ مدى تعلّقت بي، هو ذاكَ المدى الّذي يجعلُنا نشبِه الآخر أكثرَ كلّ يوم ولا نتذكّر من اقتبسَ تصرّفاتِه منَ الآخر، ذاكَ المدى الّذي يجعلنا نقتبسُ مجدّدا الأمور الّتي اقتبسَها منّا الآخر في حلقة لانهائيّة وندركُ في النّهاية أنّنا ضعنا فيه فحسب.

حانَ الوقتُ لإعطائه وإعطاء من يستحقّه فرصة، لقد احتفظتُ بقلبي خشية أن يتّسخ وحين أرَدتُ استعماله وجدتُ أنّي كبرتُ وأنّه أصبح أضيقَ من ذي قبل، لا فائدة من كبتِ المشاعِر كما لا جدوى من سدّ مجرى النّهر، لقد وعدتُ أريام أنّي سأبذلُ ما بوسعي كي أحبّها كما تستحقّ، قطعتُ لها وعدا لا يحتملُ التّأجيل طويلا، فالوعودُ كالبشر، إذا طالَ بها الزّمن تهرم وتموت...

البيانو في العلّيّة

-لم أعدْ أعرفُ من أنا...

قالتها يسرى لصديقتِها سلمى وعباراتُها قاصرةٌ عن نقلِ الحيرة الّتي تغرقُ فيها.

-أنتِ صديقتي الجميلة يسرى!

-لا أدري...

كانتْ يسرى تحاوِل الكلامَ ثمّ تتوقّف وتبدأ ثمّ تتلعثم، وتقاطِع استرسالَها التّنهّداتُ الضّائعة، ظنّ الجميعُ أنّها نجت بعد زراعة قلبِ إيمان داخلَها، وحدَها أدركتْ أنّها لم تنجُ حقّا، أمضتْ يسرى الأيّام الماضية في استرجاع ذكريات لا تعني لها شيئا، أحبّت أمورا لم تكترث لها يوما وأجادتْ أخرى كانتْ فاشلة فيها، نهضتْ كلّ يومٍ صباحا وصعدتْ إلى سطح البيتِ تراقبُ شروق الشّمس، ليسَ حبّا فيه إنّما لأنّه يذكّرها بغروب الشّمس في مكانٍ لا تذكره، هكذا استطاعت مشاهدة الغروب مرّتين في كلّ يوم، قلبُها ينبضُ كلّما تذكّرت هذا المكانَ الّذي لا تذكرُه، حينَ تغمضُ عينيْها ترى شاطئا خاليا من البشر، لحظة واحدة! هي ليست بمفردِها... هنالكَ شخصٌ ما بجانِبها، إنّه كالحلم، كلّما حاولتْ تذكّره انمحت

معالِمُه، لمَ لا تستطيع تذكّر ملامح هذا الشّخص؟ كلّ ما تعرفُه هو أنّ عينيه تسحرانِها، عيناه سوداوان جميلتان لكن... لمَ هما حزينتان بهذا الشّكل؟ كأنّهما تراقبان شيئا ما، شيئا كالحزن! هو الآن يخبِرُها بأمورٍ كثيرة ويحكي لها شيئا ما وهي... وهي مغرمة بحركة شفاهِه الممتلئة، الكلماتُ الّتي تخرجُ من بينِهما تبدو كالصّدى المتردّد في كلّ مكان لدرجة أصبحت فيها غير مفهومة لها، لم تفهم ما كانَ يقولُه لكنّه بالتّأكيد يقولُ شيئا جميلا، شيئا جعلها تبتسِمُ من كلّ قلبِها.

مرّت سنة كاملة صارتْ يسرى خلالَها تعزفُ على البيانو ألحانا تتردّد داخِلها، لم تتذكّر أين سمعتها سابقا بل ولا تتذكّر متى تعلّمت العزف على هذه الآلة الّتي لبثتْ مهملة سنواتٍ في العلّيّة حتّى كادَ يطحنُها ثِقلُ الغبارِ تحتَ ركامِه، ما الّذي يجري معها الآن؟ اكتشفت فجأة أنّها تحفظ كلمات هذه الأغاني أيضا لكنْ داخلَها سمعتْها بصوتٍ ذكوريّ خشن، من هذا الّذي اعتاد أن يغنّي لها كلّ هذه الأغاني يا ترى؟ لم تستطِع يسرى وصفَ ما تحسّ به لسلمى، لكنّها استدركت أمرا ما، شيئا جعلَها تسألُها:

-يا ترى من تبرّع لي بالقلب؟

تفاجأت سلمى من سؤال يسرى لها، ليسَ بوسعها الإجابة، لقد وعدتْ عائلتَها بعدم الإفصاح عن اسم المتبرّع.

-لا أدري لكن ستعتادين على الأمر، لا تُجهدي نفسَكِ فحسب.

-أتمنّى ذلك.

يسرى أدركتْ أنّ هذا القلب كانَ مثقلا بالذّكريات والمشاعر، لا تزالُ به ذكرياتٌ لشخصٍ ما لا تذكرُه ما لبثت أنْ سمّته: "صاحبَ الملامح الممسوحة"... حينَ نرجعُ مِنَ الموتِ لا نعود الأشخاص ذاتَهم الّذين رحلوا، يسرى لم تعدْ من الموت، من عادتْ هي إيمان!

أشتاق...

بعدَ مسيرة عدّة دقائق رفقة عمّي يغموراسن وأحمد وصلنا أخيرا إلى البيتِ الّذي ترعرعتْ فيه أريام، أحسستُ برجليّ أقلّ ثباتا من قبل، أصابعي ترتعش كرجلٍ عجوز والتوتّر ملأ بطني بالغازات، لستُ متأكّدا تماما إن كانَ ذلك هو السّبب أم السّبب هو الحليب الّذي أرغمتُ على شربِه صباحا تحتَ إلحاح عمّي يغموراسن على غير عادتي، وردني اتّصال على الهاتف، لم أعرفِ الرّقم، عادة ما لا أردّ لكنّ ذهني كانَ مشغولا بلقاء والدِ أريام وأخ عمّي يغموراسن.

-نعم من معي؟

-أنا سلمى، صديقة الفتاة الّتي تبرّعت لها بالقلب.

كم كانَ اتّصالها غريبا، من النّادر أن يتواصلَ معك شخصٌ غريبٌ بعدَ سنة من انقطاعِكما.

-أهلا كيف حالها، هل هي بخير؟

فاجأني اتّصالُها وتوقّعتُ الأسوء، لعلّه توضّح لها ذلك من نبرة صوتي، انتظرت أن تخبرني أنّها ماتت ولم تنجُ أثناء العمليّة لكنّها خيّبت توقعي بشكلٍ جميل حين قالت:

-هي على أحسن ما يرام، في الواقع اتّصلتُ لأسألك عن شيء ما.

-آاا... هل يمكننا تأجيل السّؤال إلى ما بعد؟

-سيكون ذلك سريعا لن آخذ من وقتك الكثير.

-حسنا لا بأس، ما هو سؤالك؟

-صاحب القلب... هل هو أنثى؟

لم الآن بالضّبط؟ لم على أحدهمْ أن يذكّرني بأشدّ الأحداث حزنا في حياتي هنا على عتبة السّعادة؟ صمتُّ قليلا ثمّ قرّرت إجابتَها فحسب، سأعتبرُ أنّ لا شيء حدث، أنا لم أسمع شيئا.

-أنثى!

-هل كانتْ تعزفُ البيانو؟

صدمني سؤالُها، من أخبرَها عن إيمان؟ المعاملاتُ سرّيّة جدّا، لا بدّ أنّ عليّا من فعلَ ذلك، يا له من طبيب نذل! وسطَ صمتي وذهولي سألتني مجدّدا:

-إذا ذلك صحيح! كانتْ تعزفُ البيانو واعتادتْ الجلوسَ في الشاطئ ذاتِه مع شخصٍ ما دوما، وكانا يغنّيان معا أغانيها المفضّلة.

-.....

-ما اسم الشّاطئ؟ أين يقع؟

-"كيتاني"... اسم الشّاطئ هو "كيتاني" بالعاصمة.

-هل ذاك الشّخصُ هو أنت؟

-آسف عليّ الذّهاب.

أقفلتُ الخطّ في ذهولٍ شديد وحيرة شديدين، أظنّ أنّي أخطأت بإجابتِها على الأسئلة السّابقة، لستُ متأكّدا فالأمر جاء مفاجئا بحيث لم يترك لي وقتا للتّفكير ودراسة العواقب، أيعقلُ أنّ إيمان أخبرت عليّا بكلّ هذا قبلَ موتها وأنّه بعدَ نجاة يسرى بحث عنها وأخبرها بكلّ ما قالتهُ لي صديقتُها الآن؟ تبّا! أشعرُ بحرقة شديدة تكبرُ داخلي، أنا أشتاق... أشتاقُ إلى أيّامي مع إيمان... العزيزة

إيمان! دخلتُ بيت والدِ أريام الّذي رحّب بنا كما يجب، اختفى الارتباك وحلّ محلّه الشّرود، قرّرتُ أن أنسى ما حدث، لا يمكن أن أقضيَ عمري أسترجعُ ذكرياتِ إيمان إلى حدّ عيشِها على حساب واقعي، لا يمكنني أن أضيّع أريام بعدَ أن وجدتُها، عتبة بيتِها كانَ عَقْد حياة جديدة تجمعني بها، عقدٌ أمضيتُه أوّل ما تجاوزت قدماي عتبة الباب.

رحّب بنا "عمّي علّاوة" أب أريام في كلّ خطوة خطوناها إلى داخلِ البيت ثمّ رحّب بنا بضع مرّات أخرى بعدَ جلوسِنا، أحضرَ لنا بعضَ القهوة والحلوى الّذين تمّ تحضيرُهما مسبقا، من الواضحِ أنّه كانَ يتوقّع حضورَنا، لا يختلفُ منزلُه عن منزلِ عمّي يغموراسن سوى من حيث تفصيل الغرف وموقع الجدران المبنيّة بالحجارة غير المشكّلة.

-اليوم تبيتونَ عندنا بإذن الله.

ردّ عمّي يغموراسن:

-"ربي يقوّي الخير ويجعل البركة."

سرعانَ ما استطردَ:

-في الواقع يا أخي، هذا الشّاب ضيفٌ عندي من الصّحراء وهو صديقُ زوجِ ابنتي، هو ذو خلق وثقافة ويريدُ التّقدّم لخطبة ابنتك أريام.

أبشرَ أب أريام قائلا:

-مرحبا مرحبا... لكنْ أوّلا علينا سماعُ رأي "البنت"، كانَ من المفترضِ أن تحضرَ لكنّها انشغلتْ بأمور الدّراسة هناك، كنّا نتمنّى -أنا وأمّها-أن تواصلَ الدّراسة في العاصمة قريبا منّا لكنّ الظّروف هناكَ عاندتْها وأرادت التّغيير، فما كانَ منّا إلّا مساندتها، أ وليسَ هذا دورَ العائلة؟ أن تمنعكَ من الوقوعِ في الخطئ وأن تساندكَ إن وقعتَ فيه.

كنتُ في غاية الخجل، لذلك رحتُ أردّ بالدّعاء له في كلّ مرّة: "حفظك الله"، "باركك الله"، "يعطيك الصّحّة"... هكذا إذن! الدّراسة في الصّحراء بمثابة الخطيئة، بهذ المنطق سيعني العيشَ فيها ارتكابَ إثم لا يُغتفر، أعلم أعلم... لعلّي أتهجّم على الرّجل الطّيّب مُؤوّلا كلامَه، ربّما كانَ يقصدُ بالخطئ الابتعاد عن المنزل العائليّ فحسب.

-أتيتم في يومٍ مبارك، رأسُ السّنة "أملالن" مميّز جدّا هنا.

قالَ له عمّي يغموراسن:

-مَ لا تروي لهمْ قصّة الاحتفال بهذا اليوم؟

في الحين بدأ عمّي علّاوة سردَ القصّة الموافقة لذلك:

-يقالُ أنّه في قديم الزّمان، حلّ فصل الشّتاء على المنطقة، لكنّ إحدى العجائز لم تكترث له بل سبّت شهرَ يناير ثمّ أخرجتْ أغنامها لترعاها، غضبَ شهر يناير منها وسلّط عليها عاصفة ثلجيّة جمّدتها وأغنامَها معها!

أضاف عمّي يغموراسن قائلا:

-يحكى أيضا، أنّ الاحتفالات تمّ سنُّها ليُبَارَك الموسم الفلاحي، كما أنّه يُزعمُ أنّه يصادفُ يوم انتصار الزّعيم الأمازيغي "شيشناق" على الفرعون المصري "رمسيس الثّاني" 950ق.م.[1]

كانَ الحوارُ مقتصرا على عمّي يغموراسن وأخيه بينَما كنتُ أجلسُ مستمعا رفقة أحمد، تجوّل بعدها بنا أب أريام في أرجاء القرية المحيطة ببيته ومضت بقيّة اليوم بشكلٍ جميل أنساني قليلا ما حدث قبل وصولِنا... في اللّيل وبعد صلاة العشاء اجتمعنا في غرفة واحدة رفقة عمّي وأبنائه بينما بقيت الإناث في غرفة

[1] المعلومات المذكورة هنا حول أصل الاحتفال برأس السّنة الأمازيغيّة متداولة في منطقة المغرب العربي

أخرى، شعرتُ بالذّنبِ وأنا أراه يتنقّل بيننا ذهابا وإيابا حتّى لا يُضيّع هذا اليومَ الاستثنائي رفقة عائلته.

-تفضّلوا على بركة الله...

وُضعت أمامنا مائدة وعليها طبقُ "الكسكسي"، كان مليئا بالحبوب الجافّة المختلفة وعليه لحم الدّجاج، قال لنا بينَما لا يزالُ يأكل:

-من عاداتنا ذبحُ ديكٍ عن كلّ رجل ودجاجة عن كلّ امرأة، أمّا الحاملُ فنذبح عنها[1] ديكا ودجاجة!

تساءلتُ داخلي:

"يا ترى هل ذبحوا عنّا أيضا أم ترانا نقتسم حقّ عمّي؟"

بعد أن انتهينا، أخرجَ عمّي يغموراسن من الكيس الّذي أحضرَهُ كثيرا من المكسّرات: "كاوكاو" و"قرقاع" و"بيسطاش" و"حلوة دراجي" و... ثمّ وضعَها في "الطبق" قبلَ أن يوزّع على كلّ منّا نصيبا، بعدَ قليل جلبَ أحدُ إخوة

[1] من عادات بعض مناطق بلاد القبائل في الجزائر

أريام "المهراس" وبضعة أحجار وراحَ كلّ واحدٍ منّا يكسر القشور ويأكلُ ما طاب له إلى أن أنهينا ما أنهينا واختزنّا الباقي.

حانَ وقتُ الخلودِ إلى النّوم... كان يوما مرهقا، داخلَ الغرفة، انزعجَ أحمد من تقلّبي المستمرّ وأدركَ أنّ شيئا ما يشغلني، حينها سألني:

-هل الأمر يتعلّق بالمكالمة؟

-أصبتْ!

رويتُ له القصّة كاملة لثقتي به وبنظرتِه ونصائحه، عندئذ قال:

-تأتي الأشياء المنتظرة حين يختفي الدافع وراء انتظارها، قد تتمنى أن تصدمك سيارة وتنهي حياتك، لكنها قد تصدمك حين تقرّر أن تواصل وتستمتع بالحياة.

-ألا يفترضُ بأنّ الماضي انتهى؟

-ربّما لم ينتهِ دورك فيه بعد أو أنّ دورَهُ في حياتِكَ لا يزالُ قائما، لا تخشَ من الماضي يا صديقي، ماضينا عادة ما يكونُ أرقَّ من مستقبلنا، هو أشبَهُ بكلبٍ شرسْ لكنَّ فمَه مكمومٌ وزمامُ رقبته بأيدينا.

-تعتقدُ أنّ كلّ شيء سيكون بخير؟

-نحنُ نمثّل الأمور التي نعتقدُ بها حتّى وإن كانتْ لا تمثّلنا، كأن ندافعَ عن فكر متطرّف لا نعتقدُ به، لكنّ الغيرَ سيرانا متطرّفين في النّهاية.

-تقصد أن اعتقادي بأنّ الأمور ستكونُ بخير قد يجعلني أراها كذلك.

-غالبا نعم!

-هذا أشبه بالتّفاؤل! يذكّرني بالحديث الشّريف: "تفاءلوا خيرا تجدوه".

-إذا أردتَ أن تكونَ سعيدا، فاطلب مساعدة الآخرين أحيانا وصمّ سمعك عنهم أحيانا أخرى.

صمتَ قليلا ثمّ قال:

-سأحكي لك شيئا ما... قبيل أيّام وبعدَ موعدي في عيادة طبّ العيون بطريق "واكدة" وقفتُ في انتظار الحافلة وكانَ مرورها نادرا، كانَ هنالِكَ مجموعة من الشّباب أشاروا للسّيارات العابرة فتوقّفت من أجلهم، بعد مدّة وجيزة ولقرابة نصف السّاعة بقيت واقفا لوحدي...

لطالما ادّعيتُ أنّه لا يهمّني الآخرون في حين أنّهم كانوا دوما أوّل همّي، لم أردْ أن أكونَ وحيدا إنّما اضطررت إلى العزلة بعدَ أنْ وجدتُ نفسي في محيط لا يلائمني، حينَها بدأتُ أكتبُ بغزارة، بحثتُ أثناء ذلك عن أشخاص يفهمونني، أولئك القرّاء الّذين يشعرون بتموّجات كلماتي بينَ أنفاسِهم ويشعرون بإيقاعِها يخالجُ دقّات قلوبِهم المتسارعة، عندئذ فهمتُ أنّ السّبيل الأوحد لإيجاد هؤلاء هو الشّهرة... في أوّل لقاء صحافيّ في إذاعة بشّار سألني صديقي الصّحفيّ "هشام" عن حلمي فأجبتُهُ بسرعة بديهة: "الشّهرة!"، اقتبستُ إجابتي تلكَ ورحتُ أردّدها في كلّ لقاء وأتلوها على مسامع كلّ من يسألني: "ما حلمك؟"، كبرتُ وكبرَ الحلمُ معي، كنتُ أمشي وحيدا في الشّارع والجامعة وكانوا يدعونني متكبّرا، إلى أيّ مدى هما الوحدة والكبرُ متشابهان؟ كان عليّ حينَها أن أراجعَ نفسي، ربّما أنا حقّا متكبّر، لم أكنْ أبتسِمُ أبدا بل... لم أكنْ أبتسمُ إلّا في وجوه الآخرين، غيرَ أنّ الوجوهَ لم تكنْ تقابلني بينَما أمشي، كانت تنظرُ إليّ بعدَ أن تتأكّد أنّها خرجت من مجال بصري وتشمئزّ من كبريائي المتدفّق بغزارة من حولي، حينئذ مجدّدا قرّرت تعديل سلوكي، بعدها لم أسمع مجدّدا أحدا ينعتني بمتكبّر لأنّ ما عدّلتُه ليسَ تعابير وجهي بل سددتُ مسامعي عن كلامِ الجميع.

رحتُ أقول أنّي لا أهتمّ لأحد! في الحقيقة لم يكن يوجد خارج البيت شخص لأهتمّ له، كانتْ مجرّد كذبة تجعلني أرى الأمور كما يحلو لي، وتجعلني أبدو المسيطِر لا ضحيّة لمحيطي، داخلي كنتُ أكثر النّاس تسامُحا حتّى أنّي كنتُ متسامِحا مع الأوغاد الّذين دفعوني للرحيل عنهم والآخرين الّذين رحلوا وأيضا أولئك الّذين أرادوا ترحيل أحلامي معهم... أصبحتُ أستاذا، في أوّل حصّة لي رسمتُ مستطيلا وأعطيتُه أبعادا، قالَ لي تلميذي يومها: "أليسَ الطول أطولَ من العرض؟"، نظرتُ فكان الطول مساويا لـ3 والعرض لـ5، حينها أغمضتُ عينيّ وجمعت 3+5=8 حتّى لا أنسى الموقفَ وتفاصيلَه بعد سنوات، وشعرتُ بالسّعادة لأنّها أوّل مرّةٍ يصحّح غريبٌ لي فيها موقفا، أحببتُ التّعليم كثيرا بعدها لأنّهم كانوا يصحّحون كلّ هفواتي، حتّى أنّي حزنتُ حينَ لم أعدْ أرتكبُ الكثير منها، فأصبحتُ أتعمّد أن أخطئ مرّة في الأسبوع على الأقل.

بقيتُ أنتظرُ وحدي الحافلة لأنّي لم أتجرّء على الإشارة للسيّارات بالتوقّف، عندئذ أدركتُ سببَ عدمِ تقدّمي وهو أنّي لا أطلبُ من الآخرين المساعدة مطلقا! ربّما سأطلبُ المساعدة ذاتَ يوم كي لا أهتمّ لأحد، سأسامحُ الأوغاد الّذين رحلوا وأسجنُ الآخرين الّذين حاولوا سرقة أحلامي، سأبصقُ في وجه كلّ من ينعتني متكبّرا وألطمُه هكذا ببساطة!

-بعد كلّ هذه السّنين لم تصبح مشهورا بعد!

-عدا حديثك عنّي في روايتك... لا، لم أصل إلى الشّهرة كما أنّي بعدَ حصولي على ميلين شعرتُ بالاكتفاء والغنى عن كلّ أمر دنيويّ.

-ربّما كانَ انتظارك الشّهرة أمرا خاطئا لكنّه أفضل لك فعدمُ الانتظارِ قاتل، لذلك بدلا منه علينا انتظار لا شيء، أو انتظار الأشياء الّتي لا ننتظِرُها، لا زلنا رغمَ ما تؤكّدهُ لنا التّجارب في كلّ مرّة ننتظرُ من الآخرين الكثير، كم عددُ المرّاتِ الّتي انتظرنا فيها-مثلا-أن يدافِعَ عنّا أحدهمْ في غيابنا ويلمّع صورنا؟ في النّهاية لا أحد يلمّعك، فسرائرُهم ليست طاهرة كما أنّكَ لستَ قطعَة أثاث! عملُهم يقتصرُ على إضافة الضّوء إلى وهج الشّمس والماء إلى لجّة البحر، ليسوا مستعدّين لملاحظة القطرة الّتي تضعُ ثِقلَها على بتلّة الزّهرة كي تلفظها إلى السّاقية، ليسوا مستعدّين للنّظر عبر خرم الجدار الّذي يعبرُ من خلالِه خيطٌ رفيع من الضّوء يدعوهُم إلى النّظر من خلاله لاكتشاف جنّة تقبَعُ في المكانِ الّذي تتحاشاهُ أعينُهم، ليسوا مستعدّينَ لتقدير قطعة البلاط الجميلة الّتي ستخبرُهم أنّها في النّهاية ستشكّل الأرضيّة الّتي سيتساءلون عن سرّ روعتِها لاحقا، ليسوا قادرينَ على

ملاحظة روعة لوحة فنّانٍ محتقَر، لكنّهم مستعدّون لابتياع لطخةٍ على لوحة الآخر المشهور.

لم تكنْ إجابتي مستندة على ما قصده أحمد بل على ما ظننتُ أنّه قصده فكالعادة، لم أكنْ متأكّدا مما يرمي إليه تماما، لكنّي فهمتُ أنّه عليّ عدمُ السّماحِ لأحدٍ بسرقة أحلامي المستقبليّة ولو كانَ هذا الأحدُ هو الماضي... استطعتُ بعد حديثنا النّوم، الهدوء هو أن تهدأ دواخِلُنا الّتي تغرق في ضجيج تصادُم الفكر والإرادة.

صباحَ اليومِ التّالي، شكرنا أب أريام على حسنِ الاستضافة على أن يردّ على طلبي ابنتَه بعد مشاورتِها في الأمر، بالنّسبة لي كنتُ قد حسمتُ المعركة سلفا في الدّيار، من المستحيل أن ترفضَ أريام طلبي يدَها للزّواج، صحيح أنّي لم أخبرها أنّي سأقابلُ والدَها خلال رحلتي لكنّنا متّفقان سلفا على خطبتِنا في موعدٍ قريب، اتّصلتُ بها لأطمئنّ على حالِها:

-كيفَ حالك جميلتي؟

-بخير وأنت؟

-لم تتّصلي بي على غير عادتِك!

-أنا مشغولة خلال هذه الأيّام.

-حسنا لا بأس، كوني بخير فحسب.

-هنالك أمرٌ ما، سأغيّر رقم هاتفي وفي انتظار ذلك سأتخلّص من رقمي الحالي، لذلك ستجد هاتفي مغلقا لو حاولتَ الاتّصال.

أريام ليست على طبيعتِها منذ عودتنا من المستشفى، يا ترى ما الّذي يحدث معها؟ لا أودّ الضّغط عليها فحسب...

-حسنا، لا بأس عزيزتي، متى غيّرتِ الرّقم اتّصلي بي أو أرسلي رسالة.

-حسنا، إلى اللّقاء...

-إلى...

انقطعت المكالمة، حسنا... بدأ الأمرُ يتجاوز القلق، أتراها تستفزّني أم ماذا؟ عاودتُ الاتصال بها لكنّ هاتفها مغلق، "لا بأس! كن هادئا..."، ردّدتها عدّة مرّات ثمّ مضينا إلى ذاك البيت، كانَ مجرّد "برّاكة" مهترئة، من الواضح أنّ صاحبتَها هجرتْها منذُ مدّة طويلة، هنا أينَ قيل لنا أنّ "خالتي ديهيّة" طليقة عمّي موسى تسكن، هي الشّخص الوحيد الّذي نأملُ أنّه يعرفُ تكملة قصّة أڤمد.

-من أنتم؟

فجأة سمعنا صوتا صادرا من بين الأشجار، لقد كان رجلا متّسخ الثّياب على جسدِه أثرُ الغلظة والمشقّة، ردّ عمّي يغموراسن:

-نحنُ نبحثُ عن السيّدة ديهيّة! ومن تكون أنت؟

-أنا القائمُ على أغنامِها وفلاحتِها، لكنّها لم تظهر منذُ مدّة!

-منذ مدّة!؟

-نعم، هي معتادة على ذلك، تختفي ثمّ تعود متى شاءت.

-ألا تدري ما مدّة غيابها؟ ... مدّة تقريبيّة أقصد.

-أحيانا تغيب لبضعة أيّام، وأحيانا لشهر أو يزيد.

-حسنا، شكرا لك...

هممنا بالرّحيل وحينها كلّمنا مجدّدا:

-انتظروا!

غاب للحظات ثمّ أتى بكيس فيه بعض الخضروات وقال:

-هذه من خالتي ديهيّة!

-لكنّها ليست هنا!

-لقد أوصتني خالتي ديهيّة أنّه إن زارَها ذاتَ يوم ضيف ولم يجدها لأيّ سبب، فعليّ إكرامُه بدلَها.

أشعرنا هذا الحديثُ بالحزن، لقد قال: "إن زارها ذاتَ يوم!"، هذا يشبه الحديثَ عن الأمور الّتي لا نتوقّع حدوثَها، خالتي ديهيّة لم تكن تتوقّع أن يزورَها ضيف أبدا، أو دعنا نقول أنّها توقّعت ألّا يزورها... إلى أيّ مدى عاشت وحيدة؟ وما هي القصّة الّتي تختفي خلفها يا ترى؟ قبِلنا القِرى الذّي أعطانا إيّاه ومضينا في سبيلنا.

انتماء

-كيتاني!

-ماذا؟

نظرتْ يسرى متفاجئة من الاسم الّذي خطر على بالِها فجأة حتّى أكثر من تفاجئها بعزفِ يسرى للبيانو وتعلّقها بهذه المعزوفة، صمتت لحظاتٍ تنظُرُ بعيدا متعقّبة الذّكرى الّتي بدتْ بعيدة كنقطة شاحبة على ورقة بيضاء، أخيرا عادتْ من شرودِها مؤكّدة الوحيَ الّذي أسري إليها قبل قليل:

-اسم الشّاطئ... كيتاني!

في هذه اللّحظة زاد يقينُ سلمى أنّ ذكرياتِ القلبِ الّذي زُرِعَ في صدر يسرى حقيقيّة جدّا، واصلتْ يسرى حديثَها كمن يخافُ من فقدان طرف الخيط، بعدَ مدّة لم تعد كذلك حينَ أدركت أنّ ذكرياتِها أشبه بالحلقة، يكفي أن ترتمي داخلَها وسيقودُ بعضُها إلى الآخر.

-أريدُ الذّهاب إلى الشّاطئ، هناكَ أين يجلسُ صاحبِ الملامحِ الممسوحة!

يسرى... ستنطلقُ في رحلة بحثٍ عن هذا المجهولِ الّذي أسَرَ قلبَها، قد تزورُ كلّ الأماكنِ الّتي تقودُها إليها عاطِفتُها، قلبُها الآن أشبهُ بآلة كشف المعادن، حينَ تمرّ على الأماكن الّتي لطالما انجذبَ إليها وأحبّها سينبض بقوّة فحسب!

في اليومِ التّالي انطلقت يسرى رفقة سلمى، وصلتا إلى الشّاطئ أخيرا... كم يبدو مألوفا لدرجة شعورِها أنّها كانتْ هنا ذاتَ يوم، راحتْ كالمجنونة تبحثُ في كلّ اتّجاه وعيناها مغرورقتان بالدّموع... أخيرا هرولتْ إلى إحدى الصّخور ووقعت عليها تبكي كأنها شخصٌ عزيزٌ رماها الشّوقُ إليه بعد فراقٍ طويل، كلّ شيء مألوف، شعرتْ يسرى بالانتماء الشّديد إلى هذا المكان.

-هنا! هنا كانَ يجلسُ صاحبِ الملامحِ الممسوحة!

مفتاح السّعادة

مرّتْ أيّامٌ انتظرنا خلالَها عودة خالتي ديهيّة، اضطرّ أحمد إلى تمديد إجازتِه، هو شغوفٌ بالتّكملة بقدري، أريام تلك الحمقاء لا تزالُ تغلقُ هاتِفها، لا شيء يتغيّر سوى كلّ شيء ...كم أنا مثيرٌ للشّفقة، أحيانا أتساءلُ عن جدوى عودتي من الغربة إلى هنا، أينَ لم تكنْ لي حياةٌ لائقةٌ يوما، فكّرتُ دوما في الهجرة لكنْ ما حدثَ ذاكَ اليوم دفعني لاتّخاذ قرار الرّحيل، كنتُ أعملُ صانِعا للمفاتيح بعدَ أن عجزتُ عن إيجادِ منصبٍ يلائمُ شهادتي، صنعتُ المفاتيحَ من أجلِ زبائني بكلّ سرور، إلى أن جاءت تلكَ المرأة رثّة الثّياب إليّ، بدا عليها البؤسُ والحزن، أقدّر أنّها لم تتناول وجبة صحّيّة منذ أسبوع على الأقلّ، لطالما كنتُ رقيقا وبارعا في قراءة التّعابير الحزينة على وجوه الآخرين، يدخلُ إلى دكّاني عشرات المحتاجين يوميّا لكنْ هذه المرأة... لا تبدو أحد المحترفين الّذين اختفى انكسار التذلّل من وجوههم سألتني:

-أيمكنكُ صنعُ مفتاحٍ من أجلي؟ يقولون أنّي إن لم أجدهُ هنا فلا داعي للبحثِ في مكانٍ آخر!

–صحيحٌ أنّ دكّاني ليس كبيرا، لكنّه الأكثر تنوّعا في المنطقة أؤكّد لك هذا، سأصنعُ أيّ مفتاحٍ من أجلك، حتّى أنّي سأصنعه من أجلك مجانا!

–أحتاجُ إلى مفتاحِ السّعادة...

في البداية ظننتُها تمازحني إلى انهمرتْ دموعُ غزيرة على خدّها وراحت تقول:

–أ لا أجدُ عندك مفتاح السّعادة؟ ... من فضلك!

هكذا إذن! هي ليست هنا للتّسوّل بل هي مجرّد يائسة تحتاجُ من يستمع إليها، لم أعرفْ أيّ قصّة تختفي وراء كلماتِها الغريبة، في الواقع سمعتُ كثيرا من الكلماتِ الغريبة بينما أمشي يوميّا، ستكونُ كارثة أن تحملَ كلُّها هذا الحزن العظيم، يأسُها عرّاها من التصنّع، كانتْ بحاجة إلى شخصٍ تنهارُ أمامَهُ وتقول أيّ شيء يعتريها لأنّ ذلك يشعرُها بقليل من الرّاحة، لا أدري لمَ اختارتني أو أيّ صدفةٍ رمتْها عندي، لكنْ أيّا يكن ما أتى بها فقد أشعرني أنّها قصدتْ المكانَ الصّحيح الوحيد على وجهِ الأرض، رحتُ أنظرُ إليها محتارا وأفكّر في أمرٍ ما يخفّف عنها، نزعتُ مفتاحا من حلقة مفاتيحي الخاصّة ووضعتُهُ في راحتِها، فجأة تغيّر وجهها

كسماء غائمة تنفتق غيومها مستعدّة للانكشاف، نظرتْ إلى المفاتيح وهي تأملُ أن يكونَ هو المطلوب، كانَ أمل يائس لم يعدْ يثق في عطايا القدر وقدرة الله، سألتني:

-مفتاحُ ماذا؟

-مفتاحُ دكّاني، أريدكِ أن تعتني بالدّكان وتعتبريه ملكا لك، سأعلّمك كلّ شيء أعرفه!

كانتْ مصدومة... مصدومة بقدري، يا للهول! ما الّذي أفعله بحقّ الربّ؟ قالتْ:

-كيف له أن يكونَ مفتاحَ السّعادة؟

-هو مفتاحُ سعادتي، لكنّه لن يصير كذلك إلى أن يصير ملكك وسيتعيّن عليكِ البحثُ عن مفتاحك منذ الآن!

كانَ أكبرَ قرار متعجّل أقدمتُ عليه في حياتي، لكنّ المفتاحَ جعلني سعيدا حقّا حينَ أمسى بين يديها، سيساعدُها على البقاء ويساعدني على المغادرة... لم تكنْ هذه البائسة إلّا السّيدة مخطاري! خلال بضعة شهورٍ لاحقة تعلّمت منّي كلّ ما يجبُ من أجلِ صنعِ مفتاح، وهاجرتُ في أوّل فرصةٍ سانحة وقد كانتْ لها يدٌ في

تمكّني من ذلك، لم يكن الأمرُ سهلا هناك لا يكون الأمرُ أبدا كذلك... أملتُ بعدها ألّا تحتاجَ إلى إيجاد مفتاحِ سعادتها وأن أكونَ منحتُها إيّاه سلفا!

كيف هو عطرك؟

على كلٍّ كانَ ذلك من الماضي، لحسنِ حظّي أنّ عمّي يغموراسن تدبّر لنا منزلا للكراء لبضعة أيّام أو حتّى شهورٍ لو اضطررنا، كانَ كريما جدّا معي لكنّ بيتَهُ ضيّق المساحة ولم يسعني أن أستغلّ كرمَه وأضيّق مساحة راحته... شغلتُ نفسي بمراسلة صديقتي المجهولة وحصل تطوّر جديد، لقد قرّرت الإفصاح عن هوّيّتها بما أنّنا غدونا مقرّبين، قالتْ أنّنا سنلتقي بعد أيّام قليلة وتعرّفني بنفسها، وصلتني رسالة قصيرة على هاتفي، إنّه رقمٌ غير موجودٌ على قائمتي، لديّ ذكرياتٌ كثيرة مع الأرقامِ المجهولة وكانَ أغلبُها عن فتياتٍ يدّعينَ أنّهنّ يردنَ التعارف لكنْ يتّضح في النّهاية أنّهنّ من معارفي... لا بدّ أنّها أريام، لقد وعدتني بالتّواصل معي فورَ تغيير رقمِ هاتِفِها، تبادلنا بعضَ الرّسائل حينَ بادرتني بأسئلتِها الجميلة المختلفة:

-كيف هو عطرك؟

-من الصّعب وصف ذلك لكن، يمكنُ تشبيهه برائحة رضيعك، ينفرُ منها الجميع وتعشقينَها بجنون .

-متى تدركُ أنّك نسيتَ أحدهم؟

–حين تنظرين إليه ولا تتذكّرين هداياه.

–ومتى تدركُ أنّك قتلتَه؟

–حين تنظرين إلى هداياه ولا تتذكّرينه.

رآني أحمدْ مستلقيا على الفراش وأبتسمُ بينما أقرأ رسالتَها الأولى: "كيفَ هو عطرُك؟" واعتراهُ الفضول وسألني عن سبب ابتسامتي، فأخبرتُه أنّي تذكّرتُ الحوارَ الّذي دارَ بيننا في الهاتف ذاتَ يوم، حينَ كان مسافرا في القطار...ضحكَ إثر ذلك كثيرا، رغمَ سخافتِها ستظلّ من أحلى ذكرياتِنا... كنّا فتيّين يومَها وكانتْ كثيرٌ من أحاديثنا مقرفة، ركبَ حُجرة القطار وفي الحينَ أرسلَ لي:

–الحجرة باردة جدّا.

–بإمكانِك إطلاقُ بعضِ الغازات للتّدفئة... القانون الرّابع لنيوتن!

–للأسف لم يجدِ ذلك نفعا!

–يا لضعفك في الفيزياء، من المؤكّد أنّك لا تطلقُ الغازات بالطّريقة الصّحيحة!

–تبّا لك، لديكَ مشاكلٌ نفسيّة، عالج نفسك!

صمتَ قليلا ثمّ أرسل:

-أحدهُم يُمسكُ أنفه، يبدو أنّي لستُ الوحيدَ الّذي يجيدُ التّقنيّة.

-رائع سيفيد هذا كثيرا... تدفئة جماعية! لو كنتُ مكانك لالتهمتُ بعض الفاصولياء واللّبن لتعزيز العمليّة.

-من الرّائع أنّ أنفي مسدود، سأستفيد من التّدفئة دونَ ضريبة...

لم يكنْ أحمدْ دائما ذاكَ الرّجل العميق كما لم أكنْ دوما بهذا التّهذيب، كلانا بلغ أقصى أبعاد السّخافة والأحاديث المقرفة قبلَ أنْ نقرّر أنّنا اكتفينا.

استغرقتُ قليلا في هذه الذّكرى الطّريفة، ما لبثتُ أن عدتُ إلى الواقع، لمَ تسألُني أريام عن عطري يا ترى؟ لقد أهديتُها قارورة عطري الخاصّ منذ مدّة قصيرة جدّا، راسلتُها مجدّدا:

-قلقتُ عليك كثيرا خلال الأيّام الماضية عزيزتي أريام.

-من هي أريام؟

هنا... أدركتُ أنّي كنتُ أكلّم شخصا آخر، عاشقة جديدة ربّما! لكن لمَ تسألُ عن عطري يا ترى؟ راسلتُها سائلا:

-من أنت؟

لم أحظَ بجوابٍ ولا ردٍّ على اتّصالي، لذلك قرّرتُ أن أنسى الأمر... يا للخيبة! خلتُ أنّ أريام قرّرتْ أخيرا التّواصلَ معي مجدّدا، أتحرّقُ للرّجوع لمعرفة ما يجري هناك لكن قبل ذلك عليّ الحديث إلى خالتي ديهيّة ومعرفة بقيّة أسطورة أڤمد... كنتُ على موعِد قريبٍ مع أمنيتي، ففي اليومِ التّالي وجدنا تلك المرأة العجوز، وجدنا خالتي ديهيّة أخيرا.

-من أنتم؟

-نحنُ الزوّار الّذين جئنا بحثا عنكِ في غيابك يا خالتي.

ظلّتْ مشرئبّة العنقِ تنظرُ إلينا، كانتْ ملامِحُها مشمئزّة كأنّها تنظرُ إلى شيء قذر، أدركتُ أنا وأحمدْ حينَها أنّها ليستْ بكاملِ قواها العقليّة.

-انصرفا من هنا، هيّا انصرفا!

راحتْ تصرُخُ بهستيريا وتشير إلينا بالرّحيل، لذلك ابتعدنا قليلا ثمّ عدنا باحثين خلف "البرّاكة" عنه، لقد وجدناهُ! الرّجل الّذي كانَ يحرسُ "البرّاكة" في

غيابِها، هذه المرّة طلبنا منهُ المساعدة، جلسنا إليه وأخبرناهُ بكلّ شيء وعن حاجتِنا لمعرفة بقيّة أسطورة أقمد.

-هي لن تخبركم بها.

-ولِمَ لا؟

-لا يمكنك الطلبُ من خالتي ديهية يمكنك فقط مفاوضتُها، لكن للأسف ليسَ لديكُما ما تفاوِضانِها به! فمنذُ طلاقِها من زوجِها وضياعِ ابنِها في المهجر لم تعدْ تكترثُ لشيء، لا المال ولا غيره.

نظرَ أحمدْ إليّ كأنّه يعرفُ فيما أفكّر، كانَ ما نفكّر فيه ضربا من الجنون، نظرَ مجدّدا إلى الرّجل:

-ماذا لو استطعنا معرفة ما حصلَ مع ابنِها من أجلها؟

بدا الرّجلُ مندهشا وقال:

-سأخبرها بذلك، انتظرا هنا!

آخر تفاصيل

-أريد أن أخبركِ بشيء ما!

-ما هو؟

-أعرفُ وجهَ صاحب الملامِح الممسوحة!

شعرتْ سلمى بالذّنب وهي ترى صديقتَها يسرى تعاني، لم يكنْ يغمضُ لها جفنٌ محاولةَ استرجاعَ كلّ الذّكريات الّتي لم تعشْها، قبلَ مدّة شارفتْ على الهلاك وحينَها أصبحَ لرغباتِها عندَ أهلِها وعند صديقتِها أهمّيّة، هل على المرء أن يموتَ لنفكّر في رؤيتِه كمشروع جادّ وأن نقبلَ احتمال إصابتِه كفرضيّة كما قبلنا ضلالَه كمسلّمات؟ أبشرَ وجهُ يسرى وهي تسمَعُ هذه الكلمات من يسرى، بدا كوجهِ رجلٍ يجدُ الطّريقَ بعدَ أن ضلّ في الصّحراء، مع ذلك كانتْ سلمى غير متأكّدة ممّا تقدمُ عليه، هذا أشبَهُ بسرقة سجّاد من أجلِ الصّلاة عليه، هنا يتشابَكُ الصّوابُ والخطأ بحيثُ يصعبُ فصلُهما، أ الشّمسُ تسطو على الظّلام في ملكوتِه أم الظّلامُ يسعا لإخماد الشّمس وقبرِها داخله؟

حينَ شعرتْ سلمى أخيرا أنّها لم تعدْ تستطيع تحمّل المزيد من الأسئلة، قرّرت الكلام دون تفكير كتلميذ يغمضُ عينيه ويختار إجابة ما وهو يتمنّى أن تكونَ الصّواب.

-صاحبُ الملامحِ الممسوحة هو ذاك الكاتبُ الّذي أهداك الرّواية!

تجمّدتْ يسرى للحظات، كانتْ تنظرُ إلى سلمى بشرود كأنها ترسمُ آخر تفاصيل الملامِح الهاربة من وجهِ صاحب الوجهِ الممسوح، بالتّأكيد... إنّه هو! يسرى تتذكّرُ الآن...

حكتْ سلمى ليسرى كلّ شيء! عن القلب وعن الطّبيب الّذي سهّل الإجراءات وعن كاتبِها الّذي تبرّع لها بالقلب، يسرى الآن تريدُ أن تعرفَ لمن يعودُ القلب، من المؤكّد أنّها فتاة ومن المؤكّد أنّها عنتْ للكاتب أكثر ممّا يمكنُ لشخصٍ تصوّره، طلبت من سلمى رقمَهُ واتّصلتْ به سائلة إيّاه ذاكَ السّؤال الّذي شغلَها مؤخّرا، علقَ بأنفها عطرٌ حرّكَ دواخِلها بقوّة، أرادتْ أن تتأكّد من أنّه عطر كاتبِها، راسلته سائلة إيّاه:

-كيف هو عطرك؟

كانَ القرارُ التّالي ليسرى بديهيا، ستسافرُ للقاء شخصٍ ما!

!لا أحد يجبر طائرا حرّا

حاولَ عليّ الاتّصال بأريام مرارا لكنّ هاتفَها مغلق، أدركَ أنّه ما من أمل، لقدْ خسِرَها يومَ قرّر التّخلّي عنها، حاولَ التّركيز على عملِه أكثر وشعرَ بالنّدم على ما قام به مع أريام، ما كانَ عليه أن يقولَ لها ما قال عن حبيبها، لن يحسّن ذلك من واقعه شيئا لكنّه سيضرّ بها، فهمَ عليّ أنّه في الوقت الّذي سعى فيه إلى تغيير واقِعِه كان الواقعُ نفسُه من غيّرَهُ، كان هنالك صوتٌ يتردّد داخلَه: "كم كنتُ نذلا!"... في هذه الأثناء شخصٌ ما جاء لزيارتِه في المستشفى... فتاةٌ جميلة يبدو على وجهها الذّكاء.

-أعتذرُ على إزعاجك حضرة الطّبيب، أحتاجُ للحديث معك لبضع دقائق!

-لا بأس، تفضّلي!

-أنا الفتاة الّتي سهّلتَ معاملات نقلِ القلب إليها قبلَ مدّة...

كانَ عليّ مندهشا ممّا يسمَعه، يا للغرابة... قبلَ مدّة كانَ يفكّرُ في أن يزورَ حاملة قلبِ إيمان... لقدْ أخذتْ يسرى إذن والديها للذّهاب في رحلة سياحيّة

منظّمة، أو هذا ما قالتْه لهما على الأقل، وها هي ذي تزور لأوّل مرّة هذه المدينة، مدينة بشّار... قد يعني التّقدّم أن تقفَ مكانك وتمرّ بك الأشياءُ حقّا!

-سيدي...

-نعم أعتذر... آسف، أهلا بك، مسرور لأنّك بخير.

-أشكرك، لا أريدُ إضاعة وقتك، إنّما طلبتُ مقابلتك لأسألكَ عن صاحبة القلب...

-آاا... كما تعلمين، يُمنَعُ إطلاعُ المتبرَّعِ لهم على أسماء المتبر...

قاطعتهُ يسرى قائلة:

-كانتْ حبيبة الكاتب... أعلم!

بدا عليّ محتارا جدّا، من تراهُ أخبرَها بهذه المعلومة؟ هل تواصلَ معها الكاتب وأخبرها بهذا يا ترى؟ وإلّا كيف لها أن تعلمَ هذا؟

-اسمعني... كلّ ما أريده هو أن تحدّثني عنها، أرجوك!

-تقصدين إيمان؟

لم تشعر يسرى وهي تسمع هذا الإسم أنّه يحدّثها عن شخصٍ تعرفه تمام المعرفة بل شعرتْ أنّه يناديها، قدرها هو اسمُها الآن، لقد صار اسمها "يسرى إيمان"، كان شعورا غامرا لم تبدِ منْهُ إلّا ارتباكا دام لثانية من الزّمن، وسطَ إلحاحها وعلمِها في كلّ الأحوال –حسب اعتقاده–بهويّة المتبرّع قرّر إخبارَها بكلّ شيء، حدّثها عن قصّة حبّ الكاتب وإيمان وعن مرضِها وموتِها ثمّ وصيّتِها الّتي طلبتْ فيها إيمان أن يحصلَ حبيبُها على قلبِها ثم تبرّعهِ بالقلب لها.

–في كلّ الأحوال لقدْ قرّر أن يبدأ حياتَهُ من جديد مع فتاة أخرى.

أخفتْ يسرى ارتباكَها وحزنَها لهذا الخبر الأخير وسألتْهُ في هدوء:

–من هي الفتاة الأخرى؟

...

أريام حزينة وخائفة جدّا، هي الآن تتخبّط بين فقدان الثّقة وبين الثّقة بالفقدان، تَوالي الخيبات يجعلناَ نتوقّعها دوما، وخسارة ما نحبّ باستمرار يجعلُنا نوقنُ بالخسارة القادمة، لقد زلزل عليّ كيانَها حينَ أخبرَها أنّ لقائي بها كانَ مدبّرا باحتراف والأدهى أنّه كانَ مجرّد انتقامٍ وتصفية حسابات لا أكثر.

قرّرت أريام الاختلاء بنفسِها قليلا، أغلقتْ هاتِفها وقرّرت تغيير رقمِها حتّى لا يتّصلَ بها عليّ مجدّدا، ستفكّر الآن بهدوءٍ تامّ، هي تمضي الوقتَ في الدّراسة والتّأمّل والتفكير... سمعتْ طرقا على باب غرفتِها بالجامعة، كانَ من دواعي سرورِها أن تنتقِل زميلاتها في السّكن للمبيت في غرف صديقاتهنّ وتنفرد هي بالغرفة، للمرّة الثّانية يحدث هذا ما جعلها تعتقد أنّ الأمر متعلّق بها لا برغبة زميلاتِها... لا يهم ما دام ذلك يروق الجميع، قامتْ وفتحتْ الباب:

-الآنسة أريام؟

كانتْ فتاة غريبة لم ترَها من قبل:

-نعم، ومن تكونين؟

-أدعى يسرى وجئتُ للقائك في أمرٍ مهمّ!

دعتْها أريام للدّخول ثمّ تحدّثتا طويلا، روتْ لها يسرى كلّ شيء، كانتْ تشعرُ بالذّهول فحسب، لم تكنْ أريام تدري أنّ قلب حبيبِها كانَ معلّقا بفتاة تحتضر إلى هذا الحدّ وظلّ كذلك بعد موتِها، السّيء في الأمر أنّها الآن قد لا تكونُ سوى أداة كالممحاة يستَعمِلها لمحوِ ما يعجزه نسيانه وإلا ما تفسير عدمِ حديثِه عنها؟ أ لا يؤكّد هذا أيضا صحّة ما قاله لها عليّ حين ادّعى أنّها لم تكنْ سوى وسيلة للانتقام

منه؟ كانتْ هذه الخواطر تؤذيها وتستفزّ عقلَها الّذي لم يفرغْ من معالجة كلّ ما مضى، كانَ حبّ حبيبها وإيمان عظيما لا ريب والأدهى أن يتذكّرهُ قلبُها حتّى بعدَ وفاتِها، أيقنتْ أنّها أمامَ شيء جارفٍ لا يمكنُ إيقافه، كانتْ متعاطفة مع يسرى لكن في الوقتِ نفسه تعلمُ أنّها ستشكّل تهديدها قويّا وقد تسلُبها حبيبها، تنهّدت بعمقٍ خافضة رأسها ثمّ نظرت إلى يسرى وقالت:

-لا أفهمُ سببَ طلبك لقائي؟

-قد تظنّين أنّ ما أطلبهُ وقاحة لكن... لديّ طلبٌ كبيرٌ منك.

-ما هو؟

-عديني ألّا تقفي في طريقنا إن اختارني قلبُه، إن أيقنتِ أنّه يحبّني أنا!

لقد كان إعلانا صريحا للحرب الّتي ستخوضها يسرى من أجل من تحبّ، فقط في هذه اللّحظات الصّعبة تظهرُ حكمة ورجاحة عقل المرء... ردّتْ أريام وهي لم تُفقْ من صدمتِها بهدوء:

-لا أحدَ يجبرُ طائرا حرّا على الإقامة في بيته!

ابتسمت يسرى وعيناها غارقتان في الدّموع، ضمّت شفتيها وهزّت رأسها شاكرة أريام ثمّ انصرفت... سكبتْ أريامَ لنفسِها بعضَ القهوة ثمّ تطلّعت إلى صورتِها في الفنجان ولمْ تقرأ فيه سوى هي وسط السّواد، استغفرت من هذا الطّائر الّذي ومض في بالها ثم نفثت شمالها وهي تلعن الشّيطان، رفعتْ الفنجان مجدّدا إلى شفتيها ثم ارتشفتْهُ جرعة واحدة كمشروبٍ لَعين، رفعت رأسَها إلى السّماء في حزن غامر وتساءلت:

-لمَ يا الله؟ لم يحدثُ كلّ هذا معي؟

العفريت شبرير الضّحّاك والشّيطان البرّاح يشعران باختلال الحدود بين النّهاية والبداية ويتوقّفان عن القتال، ويستعينان ببوشكارة وبورجيلة لرسم الكيان الغامض الّذي شعرا به باحثين في الكوابيس الّتي جمعاها خلال قرونٍ طويلة عن كابوس يشبه هالة هذا الكيان الجبّار.

عين تيثريت تحبسُ داخلَها الأرواح الضّائعة قبل التهامها مع عائلتِها المكوّنة من إينيل وأبنائها.

خرجَ الرّجلُ من عندِ خالتي ديهيّة ثمّ خرجتْ بعدَه، اضطربَ مزاجُها أكثر، بدتْ غيرَ واثقة بعرضِنا، لكنّ رغبتَها في معرفة ما حدثَ لابنِها كانتْ أقوى من أن تقاوَم:

-عودا ليلا!

ما كانَ علينا إلّا فعلُ ما طلبتْهُ منّا، غادرنا ونحنُ نفكّر في طريقة ما، من أين نبدأ البحث عن ابنِها؟ هذا في حال أنّه لم يهلك مسبقا... بعدَ مدّة ليست بالطّويلة عدنا إليها وقد بدأ اللّيل ينشرُ ظلامَه، من المذهِل أنّها كانتْ قد أوقدت النّار وجهّزتْ لنا أماكنَ لنجلس، هي لم تسألنا عن الاتّفاق حتّى، لم تعطِنا معلوماتٍ ولم تطلب التزاما ولا أيّ شيء، كانتْ تضعُ قربَها "الكسرة"، يشبهُ هذا إحضارَ الفشار لشخص يستعدّ للسّهر، كانتْ تتصرّف بهستيريّة طولَ الوقت، تعطي الأوامر وتناقش تخيّلاتها، روت لنا أحداث الفصل الخامس العشر الّذي ظنّنا أنّه غير موجود، ثمّ تدرّجتْ بنا إلى أحداث الفصل الثالث والعشرين، كانتْ الأمورُ تزدادُ غرابة وتشويقا، عين تيثريت وبطاقة الغفران، حرب مواي وأولمك وعودة المخلوقات الجبّارة، ما دورُ أقمد وسطَ كلّ هذه الأحداث الأكبر منه؟ كيف يكون هو بطل الحكاية إن كانَ بهذا الضّعف والعجز؟

الفصل أربعة وعشرون

اكتملَت أجسادُ المخلوقات الجبّارة، إينيل وتيثريت وأبناؤهما الخمسة، أحيانا الجزء الّذي تحاولُ قتلَه منك هو الجزء الوحيد الّذي ينجو، انقرض الملك وكلّ نسل الجبابرة بعدَ أن التهمتهم شجرة البان العملاقة انتقاما لنفسِها.

شعرتْ تيثريت أنّ شيئا ما ينقُصها، بؤبؤ عينِها غيرُ موجود! كانَ من المفترض أن تعودَ كاملة، استدعتْهُ مرّاتٍ عديدة لكنّه لم يحضر، العينُ النّافذة لتيثريت ضروريّة لإكمال طقوسِ العودة، كيفَ ستتغذّى على الأرواحِ الّتي تحومُ حولَها ولم تنتقِل عبرَ البوّابة بعد، لقد منحتهم البوّابة الفاصلة الّتي عادوا من خلالِها بعضَ الوقت لكي لا تهربَ الأرواح منهم، لم يكنْ ذلكَ مجّانيّا، فقدْ عقدتْ البوّابة صفقة مع إينيل خلال القرون الّتي تجاورا فيها، وعدها أثناءها بأن يعطيَها "الإدراك"، عينُ تيثريت النّافذة ستحقّقُ ذلك، البوّابة رغمَ أنّها وجود مستقلّ كبقيّة الموجودات، إلّا أنّها كالآلة الّتي تؤدّي ما عليها مع بعض الصّلاحيّات المخوّلة بها كالمفاوضة، يحقّ للبوّابة التّفاوض حينَ يختلّ توازن الكون وتميلُ كفّة الشرّ، حينَها يمكنُها تسهيلُ انقراض كائنات وعودة أخرى، لكنْ إعطاؤها إدراكا

يعني إعطاءها حرّيّة القرار، إضافة لكونها وجودا مستقلّا، ستصبحُ كائنا ذكيّا مستقلّ الإرادة، شأنه شأن البشر والعفاريت والشّياطين والجان...

فهمتْ تيثريت ما يحصل، أريناس السّاحرة العظمى، قيّدت بلّورة تيثريت بتعويذة أو شيء ما، لقد أدركتْ أنّه شيءٌ يعودُ لكيانٍ غامضٍ وقويّ جدّا، لم تكنْ أريناس تحاولُ منعَ تيثريت ممّا تريدُه، بل كانت تحاولُ تأخيرَها قدرَ المستطاعِ فحسب، عينُ تيثريت ستعود لمالكتِها الأصليّة في النّهاية!

توقّف شبرير الضّحاك والبرّاح عن القتال فجأة، شعرا بشيء ما يحدث، هالةٌ عظيمةٌ هناكَ في الحدود الفاصلة بينَ النّهاية والبداية، بدتْ لهما الحربُ تافهة في هذه اللّحظات، هذه الهالة سوداءٌ جدّا، في الواقع كانتْ هالة المومياء ثمّ تلتها هالاتُ المخلوقاتِ الجبّارة وهي تستعيد شكلَها، لكنّ أعظمَها كانَ هالة عين تيثريت وهي تقفز من مكانِها استجابة لنداء صاحبتِها تيثريت، شعرا بالرّعبِ الشّديد، حينَها التقطَ رُعبَهما كلٌّ من بورجيلة وبوشكارة، فتوقّفا بدورِهما عن القتال، لم يسبقْ لهما رؤية عفريت وشيطان مرعوبين بهذا القدر! حينَها أخبرهما شبرير الضّحّاك بما شعرا، فتحَ بوشكارة كيس الكوابيس الّذي على ظهره في الحال

بينَما راح بورجيلة يلتقط الكوابيس الّتي فاتتهُما أثناء دخولهم في هذه الحربِ الخاسرة، فجأة سقط بروجيلة أرضا وهو يرتجف ويردّد:

-المومياء! لقد انشقّت الأرض عن المومياء!

بسماعِ كلمةِ مومياء توقّفت العفاريت والشّياطين عن القتال، الكلّ يتمنّى أنّه لم يسمعْ جيّدا، المخلوقات الخالدة وحدَها تعرفُ ما تعنيه المومياء، خروجُها مرادفٌ للخراب، لا تمرّ بأرض ولا بشجرة إلّا وسُلبتْ الحياةُ منها، وحينَ عودتِها إلى تابوتِها فذلك يعني أنّ كيانا عظيما حلّ على هذا العالم، فجأة التقط بوشكارة كابوسا له هالةٌ شبيهةٌ بالهالة الّتي وصفَها شبرير والبرّاح، لقد كانتْ هالة عين تيثريت وهي تحتجزُ الأرواحَ الّتي تصرخُ داخلها!

-مصيبة!

صرخَ بوشكارة بعدَ أن أدركَ ما يجري، سألَهُ مواي في الحين:

-ما الّذي حدث؟

-إنّها المخلوقات الجبّارة، لقد عادت من جديد!

صُعقَ الجميع وظلّوا ينظرونَ إلى بعضِهم، لقد انتظرت العفاريتُ السبعة هذه اللّحظةَ منذ زمن بعيد، وقفتْ تماثيلُهم السّبعة تنظُرُ إلى البحر، مِن هناك ستقبلُ المخلوقات الجبّارة باحثة عن أرواحٍ خالدة تلتهمُها وتعيدُ بها بعثَ نسلِها، ظنّت الأساطير أنّ التّماثيل تنتظرُ قائدَها الّذي سيأتي ذاتَ يوم، كانَ الجميعُ مخطئا، ما كانتْ تنتظِرُه هو اللّعنة الّتي ستحلّ على العالم! القدرُ وضَع التّماثيل السّبع على هذا الشّكل منذُ البداية، لم يكنْ ذلك عبثا على الإطلاق.

-ما الّذي تنظرونَ إليه هناك؟

سألَ الشّيطان أولمك قاطعا الصّمتَ الرّهيب الّذي تغذّي وِحشتَه الرّياح، أجابَهُ موايْ:

-الفزّاعة... تيثريت وعائلتَها!

-الفزّاعة؟ ومن هي تيثريت؟

-حاولتُ إخبارَكَ منذُ البداية!

تنهّد موايْ بعمق، ثمّ راحَ يحكي لأولمك قصّة الفزّاعة ويخبره عن حقيقتِها، أخبرَه أنّ اسمها الحقيقيّ هو تيثريت وهي عائدة من الموت رفقة إينيل والّذي ظنّه

الجميعُ حارسَ البوّابة، هما من نسلِ المخلوقات الجبّارة الأولى، أخبرَهُ أنّ الدّمى السّاحرة هي في الواقع أبناء الفزّاعة وإينيل، فمواي لم تربطهُ يوما علاقةٌ بتيثريت... خلالَ قبوعِه في العالمِ الآخر استطاعَ مواي أن يراقبَ كلّ شيء ويفهم ما يحصل في هذا العالم، شعرَ أولمك بالنّدم الشّديد والغباء، لقدْ خدَعَه إينيل، ضيّع قرونا عديدة من أجلِ انتقامٍ لشيء غيرِ موجود، ما كانَ مواي ليخونَه... قاطَعهُ العفريت العظيم مواي:

-علينا الآن أن نوحّدَ جهودَنا! لا يجدي النّدم!

-هل هناكَ طريقةٌ لتعودوا أجسادا لا مادّيّة مجدّدا؟

-كلّا، فاتَ الأوان للبحثِ عن حلول مشابهة، سيكونون هنا قريبا!

في هذه الأثناء كانتْ تيثريت تفكّ التعويذات الواحدة تلوَ الأخرى، إلى أن استطاعتْ أخيرا استعادة بؤبئها الضّائع، اكتمل جسدُها أخيرا، حينَها توجّهت إلى ذاكَ المكان الّذي توجَدُ في الأرواح الخالدة، غذاءُ البعث الأوحد، اتّجهت مع عائلتِها إلى جزيرة القيامة، شاقّة عرض البحر... هناكَ في الشّاطئ، رأتْ العفاريت والشّياطينَ تنتَظرُ قدومَها، رغمَ ذلك تفاجأتْ برؤية ضخامة المخلوقات الجبّارة، ستكونُ حربا عسيرة جدّا... همستْ أريناس إلى أڤمد:

-انطلق الآن، حياتُنا تعتمدُ عليك!

فكرة تبحثُ عن إنسان!

تأخّر الوقتُ كثيرا، إلى هنا توقّفتْ خالتي ديهيّة عن سردِ الأحداث، نظرتْ إليّ قائلة:

-اذهبوا الآن، ولا تعودوا إن لم تحضروا معكم أخبار ابني!

نهضتْ من مكانِها راجعة إلى البرّاكة لكنّها توقّفت فجأة، استدارت وسألتني:

-أنت، لِمَ تعيش؟ ما الّذي تنتظره؟

كانتْ لديّ أسباب كثيرة تجعلني أواصل العيش لكنّي اخترتُ أهمّها حاليّا:

-أودّ الزّواج من فتاة من المنطقة!

نظرت بعدها إلى أحمد وسألتْه:

-وأنت؟ لا بدّ أنّك تنتظر شيئا ما!

-كلّ ما أفعلُه كلّ يوم هو الانتظار... أنتظرُ الغد فحسب!

همّت راحلة قبلَ أن يسألها أحمد:

-وأنت؟ ماذا تنتظرين؟

ابتسمتْ لنا خالتي ديهيّة لأوّل مرّة منذ رأيناها ثمّ قالت:

-أنتظركُما!

لا أدري لماذا، لكنّي للحظة ظننتُها ستجيبنا: "أنتظر الموت!"، ربّما كانتْ هذه هي إجابتُها الّتي تغيّرت بلقائنا اليوم! أولئك الّذين يدخلون إلى المغارات المظلمة ويرتقون الجبال الشاهقة بحثا عن الله، أولئك الحمقى! كانَ الأحرى بهم زيارة خالتي ديهيّة... خلالَ ذهابي إلى المساجد لصلاة الجمعة، كنتُ ألتقي صُمّا ليسَ بإمكانِهم سماعُ الخطبة لكنّهم يرفعون أيديهم مع البقيّة حينَ يدعو الإمام، رأيتُ بكما ليسَ بإمكانِهم الحديث لكنّهم يحرّكون شفاههم ليؤَمِّنوا، رأيت مقعدين ليس بإمكانِهم الوقوف لكنّهم يميلون بجذوعِهم مع المصلّين حينَ يسجدون، الجميعُ يبحث ويستقرّ في المكانِ الّذي يجعلُه يشعُرُ بالرّضى، حيثُ يشعُرُ أنّه أقربُ مكانٍ يبحثُ فيه عمّا يفتقِدُه وأنّه فعلَ كلّ ما بوسعِه، المحظوظ وحدَه من يبحثُ في المكان الصّحيح، لنْ يحدُثَ هذا إلّا حينَ نجدُ من يصحّحنا ويرشِدُنا، يذكّرني هذا بحادثتين منفصلتين، إحداهُما حدثت حينَ كنتُ طفلا في الابتدائية، كانَ المعلّم يعلّمنا كيفَ نكتب الرّقم 2 على الألواح، لاحظتُ أنّه حينَ

رفعِنا الألواح فإنّنا نقلِبُها، لذلك صرتُ أتعمّد كتابة 2 بشكل مقلوبٍ لتظهرَ للمعلّم سويّة، كانَ المعلّم يقولُ أنّي مخطئ ولم أدرك السّبب لأنّه لم يشرحهُ لي، إلى أن اضطررتُ في المرّة الرّابعة إلى رفعِ اللّوحة والنّظر إليها من الأمام، عندئذ أدركتُ أنّي بمحاولتي تصحيح الأمور أفسدتُها، أمّا الحادثة الثّانية فهي حينَ أعطى المعلّم القسم الآخر عمليّة فيها طرحُ عددٍ كبير من عددٍ أصغرِ منه، فكتبَ صديقٌ لي النّتيجة بالسّالب، عندئذ غضبَ المعلّم وأخبرَه أنّه مخطئ لأنّ العمليّة لا حلّ لها، في النّهاية وبعدَ سنواتٍ استطعنا التّعلّم بمفردنا، لكنّ تلقّي التّوجيه والتّصحيح من شخصٍ ما يجعلُنا نتعلّم باكرا ونختصرُ على أنفسِنا الكثير من الأخطاء، الباحثُ هو إنسانٌ يبحثُ عن فكرة والمعلّم الحقّ هو فكرة تبحثُ عن إنسان!

غدا أعودُ أنا وأحمد إلى الدّيار بعد هذا الغياب، كم أتشوّق لرؤية أريام وإخبارِها بكلّ شيء حصل معنا، لكنّي كذلك قرّرتُ الاعترافَ لها بما أخفيتُه عنها في الماضي، عن قصّتي مع إيمان ومعرفتي بعليّ وتخطيطي للإيقاع بها...

الخطوة التالية

خرجتْ يسرى من عند أريام، كانتْ سعيدة لكن حزينة أيضا، أسعدَها أنّ أريام ناضجة وتقدّر الأوضاع جيّدا وأخافَها ذلك، تفكيرُها الجذّاب لا بدّ له أن يوقعَ بأيّ رجلٍ محترم خاصّة إن كاتبا! هذا بغضّ النّظر عن جمالِها الأخّاذ... خلال سنة مضت جمعتْ يسرى كلّ المعلومات عنه، مقرّ سكنه ومؤلّفاته ومحيطه، جالت بكلّ شيء يخصّه إلّا هو، تذكّرت حوارَها ذاكَ مع الطّبيب عليّ في زيارتها لهل، سألتْهُ:

-سيّدي... ما الّذي يجعلُ الإنسانَ يخسرُ الأشياء الّتي يحبّها؟

-التّفكير!

-كيف ذلك؟

-سأحكي لك شيّئا ما، في أوّل سنة اجتزتُ فيها البكالوريا خسرت، تدرين كيف حدث ذلك؟

-كيف حدث ذلك؟

-رحتُ أتفقّد أوراقي الثّبوتية وأدواتي بشدّة، كنتُ مصابا بالوسواس القهريّ، حينَ وصلتُ إلى مركز الامتحان كنتُ متأخّرا بعشرِ دقائق ومُنعتُ من الدّخول!

-مؤسف.

-المؤسفُ أنّي خسرتُ العامَ الّذي بعدَه أيضا!

-بسبب تفقّدك المستمرّ لأوراقك وأدواتك؟

-بل لعدمِ تفقّدها... قرّرتُ أن أتخلّص من الوسواس ولذلك لم أتفقّد أوراقي الثّبوتيّة عندما شككتُ أنّها ليست في جيبي، حينَ جلستُ إلى طاولة الامتحان تمّ طردي لأنّي بلا أوراق ثبوتيّة.

-مؤسفٌ حقّا، على الأقلّ تمكّنتَ من الجلوس إلى طاولة الامتحان هذه المرّة!

-ثمّ الفوز في المرّة الّتي بعدَها بتفوّق.

-من الصعب عدم ملاحظته!

-ما هو؟

-ذكاؤك!

ابتسم عليّ، يسرى فهمتْ رسالة عليّ الّتي أرادها من خلالِ قصّته مع البكالوريا.

-إذا ليسَ عليّ التّفكيرُ في الأمور بشدّة وبالمقابل عليّ إعطاؤها الاهتمام الكافي.

-ومن الصعب ملاحظته.

-ما هو؟

-ذكاؤك!

بعد مقابلة أريام، كانت خطوة يسرى التّالية واضحة جدّا!

ذهبتْ إلى بيت الكاتب باحثة عنه، لا بدّ من إنهاء الأمر، لا بدّ من لقاءٍ بينَهما يتكلّمان فيه عن كلّ شيء، صدرُها ضاقَ بالمشاعر الهائلة الّتي يفرزُها هذا القلب اللّعين، من سوءِ حظّها أنّها لم تجده ولحسنِه أنّ السّيدة مخطاري سمعتْ الطّرقَ على الباب وأخبرتْها بعودته غدا، يسرى ستنتظرُه...

كلّهم جبناء

أخيرا عدتُ إلى البيت، دائما ما تكون الدّيار جميلة عندما نعودُ إليها، أحضرتُ معي جزءا من حكاية أڤمد الجميلة ولم يبقَ منها الكثير لتنتهي، ما يجعلُ الأمور الجميلة جميلةً هو مشاركتُها من نحبّهم، يعودُ بي هذا إلى وقتٍ مضى، كنتُ أحبّ اللّحم المقليّ بجنون لكنْ كنتُ أحصلُ كحال الجميع على قطعة صغيرة منه حينَ يحضره أبي، وذاتَ يومٍ بعدَ رحيلِ الكلّ وبدايتي استرجاعي الشّعور بالحياة قرّرتُ استغلال كوني شخصا وحيدا ليست له عائلة تكترث لأمره، قرّرتُ أن أفعلَ ما يفعله المشرّدون لكن على طريقة الميسورين، أن أسهر وآكل وألبس ما أشاء ومن ذلك أنّي اشتريتُ رطلا لي وحدي وحينَ أكلتُه لم يكن لذيذا كالمعتاد، قمتُ بقليه تماما كما تفعلُ أمّي، أضفتُ الملح ولم يتحسن ثمّ البهارات ولا شيء تغيّر، أدركتُ حينئذ أنّ ما ينقصُه ليس هنا وليس بوسعي الحصول عليه، كانَ يحتاجُ لمشاركتِه مع بقيّة العائلة لا أكثر.

ذهبتُ إلى الجامعة بعد أن ارتحتُ من تعب السّفر في الوقت المحدّد لنهاية الحصّة، كنتُ أنتظرُ أريام خارج المدرّج الدّراسي، كانتْ سعيدة برؤيتي، بدا عليها الشّوق لكنّها لم تكنْ متحمّسة لي كالعادة، طلبتُها للحديث في شأنٍ مهمّ، لذلك

توجّهنا إلى المقهى وجلسنا بمكاننا المعتاد صامتين أكثر من العادة، كنت واثقا من أنّ السبب هو انقطاعنا الطّويل نسبيّا عن بعضنا، لذلك ارتأيتُ استغلال هذا الفراغ التكلّم عن سبب حضوري، قصصتُ عليها قصّتي مع إيمان من البداية وكيف تعرّفتُ على عليّ وكيفَ أنّ لقائي بها لم يكن صدفة تماما، إنّما خطّطتُ للإيقاع بها انتقاما من عليّ، لكنّي بعدَ ذلك اكتشفتُ جمال روحِها وبدأتُ أحبّها حقّا، بعدَ أن أنهيتُ الحديث كنّا قد جلسنا إلى بعضِنا في المقهى، ذرفتْ عيناها الدّموع، خفضت رأسها وراحتْ تداريها وتمسَحُها.

-أنا حقّا آسف، لا أريدُ أن أبدأ حياتي معكِ بكذبة، أودّ أن نكونَ صادقين وصريحين مع بعضنا.

قضت أريام بعض الوقت وهي تحاولُ استعادة القدرة على الكلام بينما تغالبُها العبرات، تنظرُ بعيدا تارة وتشرب من كأس المياه تارة أخرى.

-أعلم!

-تعلمين ماذا؟

-بكلّ شيء... أنت وإيمان رحمها الله ويسرى وتخطيطك للإيقاع بي...

–عرفتُ ذلك! ذاك الطّبيب البائس هو من أخبرك بكلّ شيء، لن يفهمَ ببساطة!

استفزّتني محاولات عليّ الرّامية لتخريب حياتي، نهضتُ غاضبا بشدّة، نادتني أريام مرارا وأنا أبتعد، لكن دون جدوى!

...

داخلَ مكتبِه، اختلطت مشاعرُ عليّ بعدَ أن رأى يسرى، تلك الفتاة البيضاء صافية البشرة، شفتاها تبدوانِ كشفتين حصلتْ عليهما بعدَ عمليّة تجميليّة، شعرُها حريريّ فاحمُ السّواد، وعيناها بنّيّتان فاتحتان، هي جميلة بحقّ لكن ليسَ هذا كلّ ما في الأمر، داخلَها يوجد قلبُ إيمان، آخرُ ما تبقّى من المرحومة إيمان! فجأة قاطعَ خلوتَه الرّجلُ الغاضب:

–أيّها البائس القذر!

أمسكتُهُ من ياقة قميصه بشدّة وكدتُ ألكمُه لولا تدخّل رجال الأمن الذين لاحظوا غضبي من مشيتي المستعجلة، غيرَ أنّه طلبَ منهم تركي ودعاني للجلوس والهدوء، جلستُ وقد تركنا رجالُ الأمن بمفردنا، كنتُ أتوق للكمِ وجههِ الوسيم بقوّة!

-اسمع... أتفهّم غضبك، ما كانَ عليّ إخبارُ يسرى عن إيمان...

-أخبرتَها عن إيمان؟! تقصدُ يسرى حاملة قلب إيمان؟

-آاا... ظننتُ أنّها أخبرتك بذلك!

-أنا لم ألتقِها ولم أحدّثها منذ معرض الكتاب!

-مهلا مهلا... لكنّها جاءت إلى مكتبي وقالتْ أنّها تعرفُك وتعرفُ إيمان، من المستحيل أن تعرفَ بشأنِ المتبرّعة لها، نحنُ الوحيدان اللّذان يعلمان ذلك!

لم يبدُ على عليّ أنّه يكذب، لكن كيف عرفتْ يسرى بشأن إيمان؟ أشعرتني الأحداثُ بحيرةٍ شديدة...

-هذا غريب، لكنّي أؤكّد لك أنّي لم أخبرها عنها... لا تدري ما قد حصلَ فعلا، الأشخاص كالعطر الّذي تنسى رائحته...

- لكنّك حين تشمّه مجدّدا تدرِكُ أنّك كنتَ تتذكّره داخلك طول الوقت!

كان مندهِشا من إكمالي عبارتِه، طبعا فهي الكلماتُ نفسُها الّتي ردّدتها أريام يومَ أخذتُها إلى المستشفى ثمّ خرجتْ من غرفة الطّبيبة وهي متوتّرة جدّا، الآن فقط عرفتُ ما حدث!

-أيّها الحقير! لقد تحدّثتَ إلى أريام ذاك اليوم! كنتَ أنتَ من أخبرَها عن سعيي للإيقاع بها!

وسطَ صراخي وهيجاني، دخلَ رجالُ الأمن مجدّدا وأخذوني خارجا ثمّ قاموا بتحذيري من العودة مجدّدا! عدتُ إلى البيتِ، كنتُ ألكمُ أيّ شيء يصادفُني، صعدتُ إلى السّطح أينَ أعلّق كيس الملاكمة، انهلتُ عليه باللّكمات إلى أنْ خفّ غضبي... استحممتُ بعدها وعلى مائدة الغذاء، طرقتْ السّيدة مخطاري الباب، كانتْ رفقة ابنِها الصغير، أحزرُ أنّها بهذا تدعو نفسَها للولوج إلى البيت وما ابنُها سوى بطاقة الدّخول اتّقاء للاختلاء بي وإن كانتْ كما سبق وذكرت في عمر أمّي، أخبرتني عندئذ أنّ فتاة ما جاءت للبحثِ عنّي وقالتْ أنّها ستعود!

تذكّرتُ الآن! تركتُ أريام على كرسيّ المقهى غاضبا وانصرفت، لا بدّ أنّها قلقت عليّ وجاءت لتفقّدي... قاطعتني السّيدة مخطاري قائلة:

-لكنّها لم تكنْ أريام بالتّأكيد!

-ماذا؟

ضحكتْ السّيدة مخطاري من تفاجئي، طبعا فأنا لمْ أرو لها شيئا عن أريام بعد رغمَ أنّي كنتُ أنوي ذلك قريبا لتكونَ ضمنَ وفدِ الخطبة الّذي يحلّ ببيتِ

أريام، فكّرتُ في كلّ الإحتمالات، من تراه أخبرها؟ هل كانتْ تتجسّس عليّ أم أنّهما التقيتا بطريقة ما؟

-كيف عرفتِ بشأن أريام وكيف تعرفين شكلها؟

-عدني أنّك لن تغضب أوّلا.

-حسنا، أعدك.

-في الواقع... أنا الفتاة المجهولة الّتي كنتَ تكلّمها خلال الايّام الماضية ووعدتكَ بأنّي سأكشفُ لك عن هويّتي... أتمنّى ألّا تغضبَ منّي، كلّ ما في الأمر أنّ أمركَ يهمّني ورأيتُ منكَ استعدادا لقصّ تفاصيل حياتك عليّ حين كنتُ مجهولة وقد كنتُ أنوي تعريفكَ بنفسي في البداية، يوما بعد يومٍ وجدتُ أنّه من الصّعب فعل ذلك خاصّة مع شعوري أنّنا صرنا مقرّبين أكثر وأصبحتَ تعمل بنصائحي وتستشيرني...

في هذه اللّحظة طرقَ أحدُهم الباب..

معجم الراحلين

لا يمكنُ للبشر العيشُ في الهدوء طويلا، الإنسان هو الكائن الوحيد الّذي يشتاقُ للصّخب على سبيل التّغيير ثمّ يدّعي لجوءه للتّغيير بحثا عن الهدوء، لمَ كان على الأمور أن تصبِحَ على ما هي عليه؟ ظهرتْ يسرى من العدم ككرة بيلياردو بيضاء شتّت كلّ شيء مجتمع، قد ينتهي بنا الأمرُ بنزولِ كلّ واحدٍ منّا في هوّة تجمَعُنا مجدّدا لكنْ في ظروفٍ مغايرة.

بقيتْ أريام جالسة وحيدة على طاولة المقهى، كانتْ ردّتُها باردة مقارنة بالسّابق، كأنّها اعتادتْ على الصّدمات ولم تعدْ تجزع لها، تذكّرت بيتَ الشّاعر الّذي يقول فيه:

"إنّي دأبتُ ولم تعدْ بي دهشةٌ*** لا لم تعدْ تبتزّني الطّعنات"[1]

ارتشفت القهوة بهدوء، هي تحاولُ رؤية الأمور من منظور مختلف وتحاول الابتعاد قليلا والعودة للحصول على صورة أوضح كعدسة كاميرا قابلة للتّعديل، تذكّرتْ أمّها وهي توقِظُها وتطلُبُ منها فتح نافذة الغرفة لتغادِرها رائحةُ الخمول، لم يكن باستطاعتِها التقاط هذه الرّائحة إلّا بعد خروجِها من الغرفة والعودة

[1] للشاعر هشام شرقي

مجدّدا... لمَ عادتْ من أجلِه الآن؟ لمَ كانتْ نبرةُ يسرى واثقة من أنّها ستستعيده؟ في الواقع لم تعدْ أريام واثقة من أنّ حبيبَها يحبّها حقّا، لأوّل مرّة تخطرُ ببالِها الآن فكرة الابتعاد عنه، يقالُ أنّ الأمور الّتي هي لنا ستعودُ إلينا بعدَ ابتعادِنا عنها... نعم! هكذا ببساطة نتعلّم التخلّي حينَ نشعرُ أنّنا لسنا جديرين بما نتخلّى عنهُ أو أنّه ليسَ جديرا بنا، حينئذ نتفهّم موقف الأشخاص الّذين تخلّوا عنّا سابقا ونُدركُ المرّات الّتي كذبوا فيها وحسبناهم صادقين، نفهم دوافِعهم ولا نتفهّمها... "تستحقّين أفضل منّي، أمّي أجبرتني، أبي رفضك، لقدْ تقدّموا لخطبتي وأجبرتُ على القبول..."، أليسَ غريبا من المغادرين أنّهم كلّهم جبناء، لا أحد يجرء على قولِ أنّه ما من سبب فوقَ طاقتِه يجبرُه على ذلك، جميعُنا في النّهاية نحصُلُ على معجمٍ مليء بعبارات الرّاحلين الّتي لها ترجمةٌ وحيدة: إنّها النّهاية! تساءلتْ أريام: لمَ لا نتهادى هذا المعجَم بيننا كي لا نسيء الفهم؟ أمْ ترى إساءةَ الفهمِ شرطا من شروط الحصول عليه؟

في هذه الأثناء عادتْ يسرى إلى بيتِ كاتِبِها، كانتْ متردّدة جدّا لكنْ مصرّة بقدرٍ أكبر، طرقتْ الباب... فُتحَ من أجلِها، كان هو هذه المّرة!

خيانة

-لا بدّ أنّها قد عادت.

قالت ذلك السّيدة مخطاري قاصدة الفتاة الّتي جاءت بحثا عنّي في غيابي.. فتحتُ نظرتُ إليها... استغرقتُ بضعَ ثوانٍ لتذكّرها، آخرَ مرّة رأيتُها فيها كانتْ نحيفة ضامرة العضلات وعلى شفتيها زرقة مرَضيّة، الآن هي فتاة جميلة كما أنّ الهالة السّوداء الّتي على عينيها اختفت تماما، لمْ أكنْ مندَهشا كثيرا إنّما كانَ قلبي يرتَجف، شعرتُ بقلبِها يرتجفُ أيضا بينَما كانت مشدوهة تنظرُ إليّ فحسب، دقّ قلبانا لفترة كأنّهما مضبوطان على طول الموجة نفسِها، قاطعتُها قبلَ أن ترتميَ بينَ أحضاني أو ترتكبَ حماقة ما:

-سأحضرُ معطفي وأعود!

خرجتْ السّيدة مخطاري متفحّصة يسرى جيّدا بنظراتِها وعلى عتبة الباب قالت:

-نتكلّم لاحقا، أطلعني على كلّ جديد.

قالتْ ذلك وكأنّها تحذّر هذه الغريبة من ارتكاب أيّ حماقة... وكأنّ العبارة كانتْ موجّهة لها لا لي، داخلَ الغرفة جال مجدّدا ببالي ذاكَ السّؤال الذي طرحتُه كثيرا داخلي: " إن كنتُ حقّا تقبّلتُ فقدان إيمان، فهل سأواصل حياتي فحسب لو بدرَ أيّ إمكانٍ لملاقاتِها مجدّدا؟"، ربّما كنتُ محقّا، فنحنُ لا نتقبّل إلّا حينَ نضطرّ إلى ذلك، أمّا الآن فلم أعدْ مضطرّا للابتعاد عن قلبِ إيمان، لقد جاء باحثا عنّي! ها هو ذا يأخذُ بيدِها إليّ قاطعة كلّ هذه المسافة حتّى بعدَ زرعِه داخل فتاة أخرى، سرعانَ ما تمالكتُ نفسي مجدّدا، ما الّذي أفكّر به؟ أنا على وشكِ خطبة أريام، كما أنّه من المؤكّد أنّ هذه الفتاة جاءت لتسأل عن هذه الّتي تبرّعت لها بالقلب وأنقذتْ حياتها.

"سترحلُ بعدَ أن أخبرَها بكلّ شيء."

هذا ما كنت آملُه وأخشاه في آن واحد...

ذهبتُ مع يسرى إلى المقهى، نظرتُ إلى مكاني الّذي اعتدتُ أن أجلسَ فيه مع أريام، شعرتُ أنّ جلوسنا فيه سيكون خيانة لذلك اخترتُ مكانا بعيدا عنه، سألتُها عن حالِها رغمَ أنها بدتْ بخير، قضينا وقتا طويلا نتبادلُ فيه الأحاديث، أخبرتني عن المشاعر الّتي اجتاحتها وهي تقرأ روايتي، روتْ لي قصّتها ومعاناتَها

لا أدري إن تعمّدت الأمر لأرقّ لها، كثيراتٌ هنّ اللّواتي يدخلنَ قلوبَ أحبّائهنّ عبرَ الشّفقة عليهنّ، ذاك يولّد لدى الرّجال شعورا بالمسؤوليّة اتّجاههنّ ورغبة في حمايتهنّ، سرعانَ ما يعتادُ الرّجال ويقعون في حبّهنّ... لم تبدُ يسرى بهذا الخبثِ وهنا يكمنُ المشكل، فالبريئات هنّ أفضلُ من يمارسُ هذه الاستراتيجيّة النّاجحة حتّى دونَ شعور، على كلّ لم يكنْ عليّ الاحتياط لأنّي كنتُ واقعا تحتَ تخدير الذّكرياتِ سلفا، لم أكنْ أرى يسرى بل إيمان! لقد اكتسبت بعض صفاتِها ورقّتها، حدّثتني عن كثير من الذّكريات الّتي لا يعرِفُها غيرنا أنا وإيمان، عليّ لم يكنْ يكذبْ ولم يُخبِرها عنْ إيمان إذن! كانَ قلبُها من أنبأها.

أوقدتْ داخلي الحنين في أسحقِ دركاتِه وشعرتُ أنّي أريدُها، أنّي أريدُ يسرى؟ علمتُ أنّي في مرحلة خطرة، أنّي مغرمٌ بطيفٍ لم يعدْ موجودا لذلك قلتُ قبلَ أنْ أتّخذَ قرارا غبيّا:

-يسرى... في الحقيقة أنا... تقدّمتُ لخطبة أريام!

امتلأتْ عينا يسرى بالدّموع، ثمّ نهضتْ وهي تمسَحُها:

-أعتذر!

-أنا من عليها الاعتذار... إلى اللّقاء!

غادرتْ مسرعةً وجلستُ أنظر إليها، كنتُ أعلمُ أنّي لو تبعتُها فقد لا أعود وقد أبقى معها إلى الأبد... رنّ هاتفي، تبّا للأرقام الجديدة، رغمَ مقتي لها إلّا أنّه لم يمكنّي عدم الردّ، فضولي وشعوري الدّائم بأنّ هنالكَ أمرا ما يجرّانني إلى هذا دوما:

-ألو... نعم؟

-أردتُ إبلاغك أنّي لا أريد أن نكمِلَ علاقَتَنا معا، أرجوك لا تبحث عنّي مجدّدا!

-أريام... أريام... ألو!

انقطعت المكالمة، والهاتفُ مغلق من جديد، ما الّذي حصلَ للتو؟! لقد خسرتُ رفيقَتين محتملتين لدربي خلال دقائق! قبلَ لحظاتٍ فقط كنتُ أحسبني مخيّرا بينَهما... كثيرا ما رأينا أنفسنا نسقطُ من الأعلى ولحظةَ ارتطامِنا بالأرض كنّا نُفيق، لكن قد يأتي يومٌ نصطدمُ فيه بالأرض بقوّة ثمّ ننام... يا لحياتي البائسة!

انتظرتُ حلولَ السّاعة الخامسة والنّصف مساء، كانَ عليَّ انتظارُ خروج أريام بعد الدّوام المدرسي، كنتُ سعيدا لتمكّني من العثور عليها دائما في هذا المكان، من الجميل أن نجعلَ لأحلامِنا موعِدا لا يمكنُها أن تُخلِفَه، حاولتْ

الإشاحة بناظِريْها والهربَ بعيدا، لكنّي كنتُ أقربَ من أنْ أدعَها تغادِر دونَ إمساك يدِها، لستُ معتادا على لمسِ الفتيات لكنْ يدُ أريام كانتْ جيّدة كبداية، كنتُ أخشى أن تنفضَها عنها وتغادِر بيد أنّها أكرمُ من أن تفعلَ ذلك هذه المرّة على الأقلّ.

-أرجوك... لا تضغط عليّ أكثر!

بقيتُ واقفا أنظُرُ إليها، كنتُ أستعطفُ ابتسامَتَها، ابتسامةٌ واحدة بإمكانِها كسرُ هذا الجمود بينَنا، فقط لو تضحك من أجلي وسأتولّى الباقي...

-لا أريد الضّغط عليكِ، آخرَ مرّة ضغطتُ على شيء كانتْ النّتيجة سيّئة جدّا!

-وماذا حصل؟

-حصلتُ على البواسير!

شعرتْ أريام برغبةٍ شديدة في الضّحك كأنّها تقول:

"هذا التّافه المجنون! ألا يعرفُ متى يتوقّفُ عن إلقاء الدّعابات؟"

راحتْ تعضّ شفتيْها وتنظرُ في كلّ الاتّجاهات عدا وجهي محاولة التّخلّص من ابتسَامتِها... إلى أن نجحتْ في قتلِها، يا لها من مجرمة عنيدة! نظرتْ إليّ مجدّدا وفي عينيْها إصرارٌ واضح منقوعٌ في الألم الفاضح، عندئذ تذكّرتُ أحمدْ وهو يحكي لي قصّة استعادتِه ميلين، كانَ موقِفا مشابها، إذن... هكذا يبدو الحزنُ في العيونِ الجميلة! كنتُ أظنّ أنّه يغدو أخفّ، لكن على العكس هو أسوء لأنّه يشبه لطخةَ أكلٍ على لوحةٍ تقدّر بملايين الدّولارات... بعدَ أنْ أكّدتْ لي بِصَمتِها أنّها النّهاية، أخرجتُ هاتفي، قمتُ بالتقاطِ صورة سوداء...

-أريدُ أن أريكِ صورة شخصٍ ما... هكذا يبدو المرءُ حينَ يقومُ بالأمور الصّائبة فقط طيلة حياته!

-أنا لا أرى شيئا!

-ولا أنا... الملائكةُ لا تُرى يا عزيزتي!

قلتُ ذلك وانصرفتُ فحسب، اقتنعتُ بدوري، إن كانتْ تحبّني فستعود حينَ يلفحُها الحنين، وإن كانتْ تحبّ الملاكَ الّذي أنا عليه، يستحسنُ بي أن أفقدَ الأمل... بعدَ التّفكير مجدّدا ربّما فقَدَني الأملَ للتّوّ!

مضتْ الأيّام الّتي بعدَها في روتينيّتها المعهودة، إنّها كالعربة الّتي حينَ نكفّ عن دفعِها تلبثُ مكانَها، علينا دائما بذلُ جهدٍ لنكونَ بخير، السّببُ الأساسيّ للمشاكل هو أنّنا على قيد الحياة حتّى أنّه علينا دفعُ ثمنِ الأشياء الجميلة، كلّ النّعم الّتي نتمتّع بها هي مثل الأمور المستعارة التي نؤدّيها إلى أصحابِها في النّهاية، يجعلني هذا أتذكّر سبب كُرهي ارتداء القبّعات في البرد، وهو لحظة نزعِها مجدّدا! في الحقيقة لم تمرّ سوى ثلاثة أيّام، تمدّدتْ ساعاتها وانكمشتُ تحتها حتّى كادتْ تسحقني، ها هو صبحُ اليومِ الرّابع يقرع أجفاني في تكاسلٍ شديد.

أريام وعليّ ويسرى وأنا... هل نحنُ حقّا بخير؟ أم اعتقدنا لوقتٍ طويلٍ أنّنا كذلك؟ لا بأسَ أن تظنَّ أنّك مضحكٌ ما دمتَ لن تكتشِفَ ذاتَ يومٍ أنّكَ كنتَ مخطئا، اشتقتُ إلى يسرى كثيرا، شعرتُ بالحاجة للبقاء بجانبِها، في البداية كانتْ مجرّد فكرة لكنّ تعاقُبَ السّاعات غذّاها، فكّرتُ كلّ دقيقة في استعادتِها، يسرى... آخر ما تبقّى من حبيبتي إيمان... هاتفي يرنّ! مضى وقتٌ طويلٌ منذُ آخرِ مرّة حصلَ فيها هذا، لم يعدْ هاتفي يختلفُ عن ساعة اليد الّتي أتفقّدها بين الحين والآخر، هاتفي يشبِه نادلَ المقهى الّذي يملك شهادة جامعيّة لكنّ أرقى الأسئلة الّتي يطمحُ إليها هي عن قائمة المشروبات بطريقة مهذّبة... إنّه رقمَ سلمى، صديقة يسرى!

-ألو... كيفَ حالك؟

-بخير... في الواقع، يسرى اختفت، لا نستطيعُ إيجادها!

-منذُ متى!؟

-لم تعدْ إلى البيت منذُ البارحة، فكّرتُ أنّها ربّما سافرتْ للقائك مجدّدا، الكلّ هنا قلق عليها...

أشعرني الخبرُ بالذنب، أعرفُ معنى أن تتعرّض فتاةٌ للرّفض بعدَ أن تستجمِعَ الشّجاعة للبوح، أمّا تتعرّض فتاة جميلة له ففيه ما فيه من الذلّة وعدم التّقدير، لا أدري من فرضَ هذه الأعراف أو متى فعل ذلك لكنْ لمَ على الرّجال الاعترافُ دوما والمبادرة في كلّ المجتمعات على اختلافِها؟ فجأة تذكّرتُ شيئا ما!

-أظنّني أعرفُ أين قد أجدها!

-أين؟

-عليّ التحقّق من ذلك بنفسي! سأخبركم بأيّ مستجدّ.

ماتت!

أخيرا طرأ شيءٌ ما لأقوم به قبلَ أن أجنّ، لو استمرّت رتابة الايّام على حالِها لكنتُ حلّقت عائدا إلى المجر والله وحده يعلمُ متى كنتُ سأعود مجدّدا، خلال ساعاتٍ كنتُ قد حجزتُ رحلةً وركبتُ إلى هناك... إلى العاصمة بعد انتظار حوالي ساعة ونصف في المطار، كلّ شيء يحدث يؤكّد لي أنّ القدرَ لا يتركُ شيئا للصّدفة، ما يبدو لنا صدفة هو حركة واحدة من لعبة شطرنج طويلة، حتّى أنّه لم ينسَ تدبير مقعدٍ في الطّائرة لي، ربّما أردى صاحب المقعد أو أخّره وفي كلّ الأحوالَ ما كانَ ليسمَح له بالحضور لمجرّد أنّه يريدني أن أطير إلى هناك، نصحتني السّيدة مخطاري بدورِها بعدم التّدخّل والابتعاد وتصليح الأمور بيني وبين أريام، لكنّي عنيد وطيبٌ بهذا القدر، ولا واحدة من الصّفتين تستلزمُ الأخرى.

وصلتُ إلى العاصمة مساء، مشيتُ في صخبِ المدينة وشيئا فشيئا دخلتُ المناطقَ الأكثرَ هدوءً إلى أن وصلتُ... لم تكنْ يسرى هناك، في الواقع أتيتُ أبكرَ قليلا فلا تزالُ تفصلني دقائق عن الموعد، لذلك انتظرتُ فحسب... مع تماثُل الشّمسِ للغروب واستعداد اليوم للهروب، سمعتُ صوتا يسألني:

-ما الّذي تنتظره؟

-كنتُ واثِقا من قدومِك!

كنتُ جالسا على صخرتِنا الّتي لطالَما جمعتنا أنا وإيمان، هنا استمعنا طويلا إلى صرخاتِ الأمواجِ المنتحرة، وهنا أخبرتُ إيمان أنّي أراقبُ الحزنَ كي لا يباغتني... اقتربتْ منْ ظهري يسرى... عانقتني بهدوءٍ قاتل، لفّت يديها حول رقبتي وانسدلتْ على صدري كربطة عنق، أمسكتُ راحتَها الدّافئة، ما أفعلُه الآن هو الأمور الّتي تمنّيتُ فعلَها مع إيمان، يعلّمنا الشّخصُ المناسِبُ فعل كلّ الأمور الّتي كانَ يجبُ علينا فعلُها معَه لنقومَ بها مع غيرِه، يا للسّخرية!

شعرتُ بدقّاتنا تعدّل إيقاعَها لتتناغم، لمَ لا أجرء على النّظر إليها؟ ممَّ أخشى؟ حسنا عليّ فعلُ ذلك! وقفتُ وعانقتها دونَ أن أنظرَ إلى وجهها، عانقتُها لوقتٍ طويلٍ، احتضنتُها بقوّة باحثا عن الاكتفاء لكنّي لن أكتفيَ أبدا منها، لذلك انسحبت بعدَ لحظاتٍ من معانقتِها، حينها نظرتُ إلى عينيْها البرّاقتين، كانتْ سعيدة جدّا وكنتُ كمنْ يفيقُ فجأة من التّخدير، نظرتُ إليها محاولا تدارك كلّ ما فاتني، يصعبُ قتلُ هذه السّعادة الغامرة، لكن...

-لكنّك... لكنّكِ لستِ إيمان، إيمان حقّا ماتت، وأنتِ يسرى!

انتابتني حالةٌ هستيريّة، كنتُ أنظرُ إليها مشدوها وأردّد ذلك، شعرتُ بالرّغبة في الضّحك والبكاء والصّراخ والسّكوت في آن واحد، نبضَ قلبي بقوّة، ينقصني شيء ما! شيء تركتُه هناك... بل شخصٌ تركتُه هناك، إيمان ماتت! وهذه الّتي أمامي هي يسرى، أريدُ رؤية أريام... حبيبتي أريام!

لم يزد أحدنا على ذلك كلمة واحدة، سمحتُ لنفسي بمعانقتِها دقائق إضافيّة لكنّي هذه المرّة فعلتُ ذلك من أجلِها، كان ذاك النّوع من الذّنوب الّذي نتوب منه قبل القيام به ثمّ نقوم به رغمَ ذلك، ذنبٌ أخير فحسب، ذنبٌ لذيذ... الألذّ ربّما، كآخر قطعة من الحلوى النّادرة بل الفريدة من نوعها.

عدتُ رِفقة يسرى إلى المدينة والصّمتُ يُلجِمنا، طلبتُ منها أن تعتني بنفسِها وعنيتُ ذلك فعلا، رغبتْ في ذلك حقّا غير أنّها تجهلُ كيف، أخبرتُها بأنّ هنالكَ أشخاصا يحبّونَها ويقلقون عليها، كانتْ مدركة لذلك سلفا! لكنّنا نحتاجُ لمن يخبرَنا مجدّدا بالأشياء الّتي نعرِفُها، تذكيرُنا بما نعرف يزيد إيماننا به، كانَ عليّ تركُها في النّهاية مقابلَ ذرفِ كثيرٍ من الدّموع الّتي لا بدّ منها، تأكّدت من أنها بلغتْ عتبة بيتها وانصرفت قبل أن يلمحوني ويصرّوا على بقائي ومعرفة قصّة البطل الّذي أعاد ابنتهم إليهم، أو الشّرير الّذي جعلَها تهرب من بينهم، أعدتُها إلى

أهلها واتّضحت الرّؤية أمامي، لا يمكنني التّضحية مجدّدا بمشاعرِ الحبّ مقابلَ نزواتي أو مشاعرِ الشّفقة، ستتعافى يسرى في النّهاية! الجميعُ يقاتلون من أجلِ أنفسِهم، محاربتُنا بدلَ الآخرين تعني التّنازلَ عن أنفُسِنا، إن اهتمّ كلّ واحدٍ بنفسِه فمن سيتهمّ بنا؟ كلّ ما أعرفُه أنّ كلّ واحدٍ سيخوضُ حربَه بمفردِهِ في نهاية المطاف ولن يتحمّل أحدٌ جراحَ الآخرين ولن يشعُرَ بها... الآن، سأعملُ على تقطيب جراحي، سأعود من أجل حبيبتي أريام!

الشّيء الّذي تعرفين مكانَه

أريام تقضي وقتَها وحيدة في الغالب، ما عدا الأوقات الّتي تتواجدُ خلالَها في الجامعة، حينَ اتّصلَتْ بأهلِها قبل أيّام قليلة، أخبرَتْها أمُّها أنّ أحدَ الأشخاص الّذين تعرفُهم على الأرجح تقدّم لخطبتِها، لكنّ أريام طلبتْ تأجيلَ الأمرِ إلى وقتٍ لاحق.

ظلّ ذاك المشهدُ يتردّدُ في ذهنِها، كيفَ يبدو المرء الّذي يقومُ بالأمور الصّائبة طيلة حياته؟ هل حقّا على المرأة أن تجدَ رجلا لا يكذب ولا يخطئ؟ الرّجال حقيرون وسيفعلون ذلك مهما كانت وعودُهم، في الواقع على المرأة البحثُ عن رجلٍ لا يكذبُ كثيرا وعن رجلٍ يعترفُ بأخطائه على الأقل، ربّما وجدتْه أخيرا لكنّها تركتْهُ يرحل ببساطة، إن ظلّت تبحثُ عن الأفضل فستجدُ دائما أشخاصا أفضل، لكنّها قد تجدُه بينَما يبحثُ عن أفضل منها، تتعلّقُ الحياةُ بمعرفة متى نبدأ وكيفَ نواصل ومتى نتوقّف، هل تخلّت أريام عن حلْمِها الّذي وجدتْه؟ لا يوجدُ شخص تخلى عن أحلامه وهو في كامل وعيه، الأحلام تتخلى عنّا وحينها نهرب إلى الأحلام التي تتقبّلنا، أو إلى واقع نكون فيه حلما للآخرين، نحنُ نحاولُ تغيير كلّ شيء، ووحدها الأشياء الّتي نفشلُ في تغييرها ما يغيّرنا، فنحنُ–مثلا–حين

نقتنِعُ أنّ اللّطفَ لا يكفي لانتهاء الآخرين عن إزعاجنا، نتنازلُ عنْهُ ونغدو أشدّ وأغلظ.

قرّرتْ أريام الخروج إلى الغذاء، لا تزالُ تحترمُ الوقتَ الّذي كنّا نتغذّى فيه سويّا، خرجتْ من باب الجامعة مركّزة نظراتِها على باب البيتزيريا في الزّاوية البعيدة... لم تتوقّع رؤيتي هناك... ولا أنا، هنا على باب الجامعة استعادَ أحمدْ ميلين مرّتين وكانَ لا بدّ من مرّة ثالثة وها أنا أكمل ما بدأه... المسلسل ذاتُه بممثّلين مختلفين، نظرتُ إليها بنظراتٍ قويّة لا تقبلُ العبث، أخبرَتْها عيناي بأنّي لستُ هنا للنّقاش، انتظرتُكِ هنا لأكثر من ساعة لاستعادتك، أخطّط لقضاء بقيّة اليوم معك وليست لديَ خطّة احتياطيّة.

-أريد أن أكون معك... إن كنتِ تنوينَ خوضَ الحرب، فلن أخوضَ حربا ضدّك!

-وماذا ستفعل؟

-سأنتظرُ خروجكِ من الحربِ ضعيفة ثمّ أستولي عليك.

ضحكتْ أريام كأنّها ليستْ الفتاة الّتي كانتْ تفكّر بكلّ تلك الأمور الجادّة قبلَ قليل، كانتْ مشتاقة جدّا لي، أحسستُ بذلك!

-ما هي خطّتك الآن؟ ستجعلني أتعب من المشي كعادتك؟

-في الحقيقة، كنتُ أفكّر في الرّكض قليلا على سبيل التّغيير.

-بل على سبيل إذابة شحومِ بطنِكَ!

نظرتُ إلى بطني وقرصتُه بإصبعيّ مبرهنا لها أنّ جسمي لا يزالُ رياضيّا ثمّ قلتُ:

-لا بأس، إن كانَ اعتقادُكِ يقنعك بالمشي معي طيلة النّهار.

-لمَ لا ترحمني وتشتري سيّارة قديمة؟

-لستُ غنيّا بالقدرِ الكافي لذلك، أملك ثمن سيّارة جديدة فحسب، كما أنّي أحبّ أن تبقا زوجتي رشيقة.

كانتْ أريام مشرقة كالرّبيع بتنّورتها البيضاء المزيّنة بالورود الحمراء وملمّع شفاهها الّذي يعملُ وسيطا يزيد الانسجام بين شفتيها وورد تنورتها، استغرقتُ وقتا قبل أنْ أستطيع الكفّ عن النّظر إليهما صعودا ونزولا، اكتشفتُ الآن أنّنا لسنا بتلكَ الرّقّة الّتي هما عليها أحمد وميلين، لطالمَا حُلّت المشاكلُ بينهما بالدّموع، أمّا أنا وأريام فحللناها بالضّحكات، لكلٍّ طريقتُه الّتي تجدي معه نفعا، ما يهمّ هو

تحقيق النّتائج في الأخير... وسطَ كلّ تلكَ الدّعابات، تبادلْنا حوارا جادّا، تقبّلنا أعذار بعضِنا، وتصافحنا معلنينْ هدنة طويلة الأمد، لذلك كانَ لا بدّ لنا من الاحتفال:

-ماذا تختارين؟ بيتزا بالجبن أم بيتزا بالجبن؟

-يا لك من بخيل، أظنّ أنّه لا بدّ إذن من اختيار البيتزا بالجبن الألذّ.

-وكيفَ سنعرفُ أيّها ألذّ؟

-لن نعرف... يكفي أن نقتنِعَ بأنّ ما لدينا هو الأفضل.

-لأنّ هنالكَ دائما أفضل!

اقتنعتُ الآن! أنا أحبّ هذه الفتاة وأريدُ أن أمضي بقيّة حياتي معها!

-هل سنبحثُ طويلا عن مطعم؟

-لا تقلقي، في هذا الزّمن الأمرُ الوحيد الّذي لا يمكنك البحث عنه هو الشّيء الّذي تعرفين مكانَه...

فجأة، توقّفتُ ومرّ شريطٌ طويلٌ من الذّكريات في رأسي، كيفَ لم أفكّر بذلك؟ التقمتُ الهاتفَ بسرعة...

-ما بك؟

-لحظة واحدة...

اتصلتُ بأحمد، طلبتُ منهُ مستعجلا إيّاه أن يسأل عن اسم ولقب ابن خالتي ديهيّة ثمّ يبحث عنه في مواقع التّواصل الاجتماعي وفي الانترنيت، هل يُعقلُ أنّ لا أحد فكّر في أمر بديهيّ كهذا من قبل؟ جلستُ مع أريام واستمتعنا كثيرا بوقتنا، كنتُ في انتظار مكالمة تحملُ البشرى من أحمد... أخيرا رنّ الهاتف.

-بشِّرني!

قالت: "مجدّدا"

الأيّام فارغة! أشدُّ فراغا من الفراغ، تذكّر عليٌّ متأمّلا المسار الّذي سارَ عليه طيلة حياتِه باحثا عن موضع الخطأ، فلم يجدْ أمرا صحيحا، خياراتُه كانت كومة أخطاء تتدحرجُ من الأعلى وخلال ذلك تغدو أكبر، الدّنيا اللّعينة! لا تعطينا الأمل إلّا لتستمتع بسلبِنا إيّاه، السّبيل الوحيد للانتقام منها وجعلِها تعيسة هو استعمالُ عطاياها بلا تعلّق ولا اعتماد عليها، السّبيل لإتعاس الدّنيا هو تركُها قبلَ أن تتركُنا، نطلبُ منها فتمنحنا، وتمنحنا لتسلب منّا، ثمّ تسلبُ منّا لتطلبَ منّا المزيد، هي جشعةٌ بشكلٍ لا يُحتمل، تجعلنا نعلّق الزّينة البخسة على الجدران وندفنُ زينة حياتنا في حفرة في الأرض، هذه الدّنيا الّتي يعمِّرُ فيها الجماد ويغادِرُها الأحياء لا تستحقُّ منّا كلّ الحِلم والتروّي، حانَ الوقتُ لنقومَ ببعضِ الأمورِ الّتي أجّلناها لأنّنا جَبُنّا عنها أو ظننّا أنّ وقتها لم يحنْ.

-تفضّل!

بعد أيّام عديدة ها هي عادت من جديد متحمّلة عناء السّفر لرؤيته، إنّها يسرى! لم تكنْ خالية الوفاض، كانتْ تحملُ شيئا جميلا جدّا لم يفكّر فيه عليّ، شيء سيصرفُ عنهُ الوِحشة الّتي لفّتهُ كرضيع، حملتْ معها ذاك السّؤال الجميل:

-هل يمكنُ أنْ نكونَ صديقين مجدّدا؟

قالتْ يسرى "مجدّدا"... فقلبُها لم ينسَ أنّ عليّ كان صديقا له في حياةٍ سابقة... قرّر عليّ في منذُ أيّام الرّحيل من جديد، سيعود إلى مقرّ عملِه بالعاصمة حتّى أنّه قدّم الطّلب من ذ مدّة وتمّت الموافقة عليه، العاصمة حيثُ تسكنُ يسرى، كانَ قدومه إلى بشّار خطأ من الأساس، لقد أطاع دوما الأفكار الّتي تبدر في بالِه فجأة وهذا ما أوصلَه إلى ما هو عليه، لا ضير إذن في فعل ذلك مرّة أخيرة! لمْ يردْ أن يفكّر أكثر، كلّ ما يحتاجُه الآن هو بعضُ الطّيش وعدم المبالاة!

كانتِ المسافة بعيدة جدّا إلى هناك، رغبَ جدّا في ركوبِ الحافلة، ربّما لإطالة السّفر هذه المرّة، بدا قولُ ذلك ليسرى حماقة، كبِرنا على إنكار رغباتنا لذلك حين نعترفُ بها ينكرنا الجميع، توجّه إليها قائلا:

-أتساءل كيفَ كانوا يقطعون مسافاتٍ كهذه قديما!

-كما سيتساءلُ ذات يومٍ رجلٌ من المستقبل عن قطعِنا لهذه المسافة.

-على كلٍّ، أيّ شخص سويٍّ سيركبُ الطّائرة لقطعِها.

-إذا سنستقلّ الطائرة!؟

-كفاك حماقة، لسنا أسوياء لهذه الدّرجة...

منذُ مدّة لم يشعرْ أيّ منهما بهذه الرّاحة والرّغبة في الضّحك، لدرجة أنّ كلّ الأمور صارت مضحكة بالنّسبة لهما، لطخة الكحل على وجه يسرى وحبّة العمش العالقة في عين عليّ والعطسة الّتي فاجأتها لدى فتحِها أحد الكتب وتلعثمه المتكرّر كل بضع مئة كلمة...

...

بَحثَ أحمد في مواقع التّواصل الاجتماعي عن ابن خالتي ديهيّة، وجد عدّة حساباتٍ تحمِلُ اسمَه، حينَ غادرَ البلد كان عُمر أسامة ابن خالتي ديهيّة قد تجاوز التسعة عشر عاما، لم يكنْ صغيرا بالقدرِ الّذي ترعاه فيه دُور الرّعاية أو تتبنّاهُ عائلة ما، لا عجبَ إن ظلَّ اسمُه ملازما له، اتّصلَ أحمد بي ليخبرني بما توصّل إليه:

-لقد تواصلتُ مع الحسابات، أنتظرُ ردّا منها الآن...

خلالَ الأيّام التّالية، بحثنا في الحسابات عن أيّ معلومة توصِلُنا إلى ابن خالتي ديهيّة وللأسف لم نتلقَّ أيّ ردّ، غيرَ أنّ أحد الحسابات حملَ موقِعا ما، المعلومات به تقولُ أنّ صاحبَه يعيشُ في "تولوز" إحدى المدن الفرنسيّة، بعدَ أيّام سأعودُ إلى قرية آث-سعيد مع السّيدة مخطاري وصديقي أحمد -آخر من تبقّيا من

أهلي– لطلبِ يدِ أريام رسميّا، لقد وافقَ والدُها بعدَ استشارتِها، كما أنّها وافقت على الرّحيل والعيشِ معي، كنتُ محظوظا أكثر من إمري ناجي، لن يكونَ عليّ أن أضحّي بحياتي هناك من أجل البقاء مع أريام، أنا وهي وكلّ ما حقّقتُه... سنبقى سويّا، قلبُ أريام الكبير وتجاوزُها عن زلّاتي وتقبّلها لذنوبي، كلّ هذا جعل منّي شخصا أفضل، أحسستُ بالرّاحة أخيرا... أن تكونَ مذنبا! هو أن يكون كل ما حولك صحيحا حتّى وإن كان خاطئا، لكنّ الأهمّ ممّا حولك هو ما بداخلك، حالة الرّضى الّتي تجتاحك لـمّا يشيرُ إليكَ المخطئون بأصابِعهم ويطرقُ القاضي على منبرِه صائحا: "حُكِمَ على المذنبِ بالإعدام!"، تضطربُ ثمّ يثبّتُك الله وتسمَعُ مناديا داخلك يقول: "نعيشُ لنموتَ في يومٍ آخر، اليوم أو بعد عشرين سنة، ما الفرق؟"

في هذه اللّحظات قرّرتُ بمفردي شيئا ما...

-عزيزتي... سأسافرُ للمجر!

-الآن؟ وماذا عن خطبتِنا؟

شعرتُ أنّ الأيّام تجرفُني لما تريد، حان الوقتُ لبعض الطّيشِ المقنّن، فكري يتطوّر وأفكاري لا تتغيّر وهذا خطير ...كيف أنازل عدوّي بسيفٍ صنعتُه في

مخيّلتي؟ كيفَ كنت سأهدي أمّي الحلوى المغلّفة بالشّكلاطة الّتي تخيّلتُها أمسُ قبلَ نومي؟ سأفعلُ شيئا ما لكسر المعتاد ولشغلِ المفروغِ منه، لكنْ هذه المرّة لن يكون من أجلي بقدر ما هو لشخصٍ بحاجة شديدة إليه، حدّدتْ خالتي ديهيّة ثمنَ آخر فصول أسطورة أڤمد، لقد كانَ الثّمنُ معرفةَ ما حصلَ لابنِها، أتمنّى أن أستطيعَ معرفة ذلك حتّى وإنْ كان ميّتا فذلك سينهي قلقَها المزمن وتعلُّقها المستمرّ بخيطٍ مفصول الذّيل لكنّه أطول من عمرِها، لا أدري هل كانَ الأملُ ما أحياها أم أنّه ما قتلَ كلّ شيء فيها ولم يتركْ إلّا الذّكريات المتردّدة في زوايا قلبِها المهترئ.

-ثقي بي، سيكونُ كلّ شيء بخير.

نظرتْ إليّ أريام، عيناها تلفظان الشّوقَ الّذي ستشعرُ به إليّ حين أغيبُ عنها منذُ الآن، أيقنتُ حينئذ أنّ اللّحظةَ الوحيدة الّتي نعيشُ فيها المستقبل هي لحظة الاستعداد له، لأنّه حينَ يحينُ يغدو حاضرا وسنجدُ طريقة ما لإفساده، هو يتقبّلنا بغضّ النّظر عن تقبّلنا لأنفُسِنا أثناءه، كم يبدو هذا الوداعُ حزينا حتّى أنّ كلمة "سأعود قريبا" الّتي ينبغي أن تبعثَ على الأمل والارتياح تزيدُ مشاهِدهُ حزنا.

قليل من الملح والحلوى

عدتُ إلى المجر وجلستُ إلى تمثال إمري ناجي مجدّدا، إنّه صديقي الوحيد في هذا البلد، قصصت عليه ما حدثَ كما كنتُ أفعلُ في السّابق، بدا مصدوما كأنّه يسألني:

-كيفَ حقّقتَ كلّ ما تريدُ دون تضحيات على عكسي؟

-أ حقّا تظنّ أنّي لم أضحِّ؟

-على الأقلّ أنتَ لم تفقد حياتك.

-بل فقدتُها ذاتَ يوم.

-ومتى كان ذلك؟

-حينَ حاولتُ أن أموت بعدَ رحيل أهلي ورحيل إيمان بعدهم.

-إذن حاولتَ الانتحار؟

-بل حاولتُ العيش، العيشَ بلا مشاعر ولا طموح، حاولتُ العيشَ بلا حبّ! حينَ يموتُ أحبابُنا فنحنُ نرافقهم في موتهم، بيْدَ أنّهم يعبرون البوّابة ونعودُ نحنُ أدراجَنا باحثين عن أشخاصٍ يرافقوننا لـمّا يحينُ دورُنا.

-تبدو سعيدا بتجاوز الأشخاص الّذين تحبّهم.

-لا بدّ لنا من تجاوز من نحبّهم أيضا لأنّهم كانوا سيرغبونَ في ذلك إن أحبّونا حقّا، أمّا من يحاولُ منعكَ من نسيانِ الألم الّذي تُسبّبه ذكراه فهو مهوس لا يستحقّ أن تتذكّره، النّسيان لا يعني الإنكار، النّسيان هو تجاوز الحزن الّذي يشجّ النّفس لا تجاوز الخصال والذّكريات والوعود... أحيانا أتساءل كيفَ استطعتُ الصّمود؟

-وكيفَ استطعتَ الصّمود؟

-قليلٌ من الملح وبعضُ الحلوى ووقتٌ للنّوم.

بدا وجهُ إمري ناجي الصّامدُ مندهِشا ويتساءل:

-الملح والحلوى والنّوم؟

–اسمعني جيّدا يا إمري، عيشي بمفردي لمدّة طويلة علّمني أمرا واحدا وهو أنّ الوحدة ليست اعتزالا للبشر فحسب بل هي اعتزالُ الفنون الّتي بها تطرحُ مفاجآت الحياة أرضا بدل أن تطرحك، معاشرة أصناف البشر وحدها تعلّمك فنون العيش، البشرُ يا صديقي إن أرادوا تعذيبكَ وضعوا الملح على جراحك وزعموا أنّ ذلك لقتل الجراثيم، ومع ذلك تتعلّم منهم كيف تداوي جُرحك مستقبلا إلى أن يلتئم، وحين يحبّونك ويرغبون في وضع حلوى في فمك سيقولون أنك بحاجة لبعض الطاقة، مع ذلك يؤذونك باعتيادك على الحلوى فيزيد وزنك وتصابُ بالدّاء، حين يريدون إيقاف أحلامك سيدّعون أنهم يريدون النوم لكنّ الضّوء يزعجُهم دون علمٍ منهم أنّ السّهر سيضرّ بك، وحين يرغبون في دعمها سيقولون أنّه عليك مطاردة احلامك إلى النهاية، وسيحملون أفرشتهم وينامون في الغرفة المجاورة، وقد يؤذيك الأرق بعدَ اعتياد السّهر.

مهما كانَ ما سأفعلُه، كانَ عليّ الإسراع في تنفيذِه والعودة لإتمام خططي المعلّقة... خلالَ يومين، كنتُ هناك في "تولوز"، كانَ التّعاملُ سهلا فأنا أجيد الفرنسية إلى حدّ مقبول، خسرتُ الكثير لأصل إلى هنا، شعرتُ بالألفة في ملامحِ بعض السّكّان، خفّف هذا قليلا من غربتي، رحتُ أتنقّل ضائعا بين البيوتِ في الشّارع، لقد أوصلني العنوان إلى أقصى ما حمله، الآن عليّ الانتقال إلى الخطّة الثانية

أو الثالثة أو... لا أدري، كلّ ما أعرفُه هو أنّه عليّ ألّا أعطيَ خطّتي حرفا، فالحروفُ أصبحتْ قاصرة عن تغطية الخطط الّتي تفرّخُها عشوائيّتي واندفاعي الدّائمان إلى ما أريده.

أخيرا استسلمتُ إلى الخيارِ الّذي كانَ واضحا منذ البداية، اتّجهتُ إلى أحد الشّباب، حاولتُ تفرّسه قدرَ الإمكان، الثّقة في الأماكن البعيدة قد تكون مهلكة، سألتُه بلهجة فرنسيّة غريبة عنه لازلتُ أحافظ عليها وأرعاها مثلما يرعى الربّ أنفاسَنا منذ درستُها في السّنة الرّابعة من تعليمي الابتدائي، نظرَ إليّ مبتسما:

-"واش راك خويا، تودّرت وقيلا؟"

كانتْ دهشتي كبيرة وأنا أسمعه يتكلّم بلهجتي، إنّه من هناك... من الوطن!

يا لحظّي السّعيد، رحّب بي كثيرا وهو في قمّة السّعادة.

-لا بدّ أنّك مرهق، ستأتي معي لترتاح وبعدها سنبحثُ عنه.

بعدَ تردّد كبير وافقتُ على الذّهاب معه، في البداية ظننتُه سيأخذني إلى بيته لكنّه توجّه بي إلى فندق، كنتُ خائبَ الأمل بعض الشّيء، الأشخاصُ هنا مختلفون

عن أنفُسهم هناك في الوطن، هم يشبهون الفسيلة الّتي تنمو وتورق في أرضٍ وتجفّ في أخرى، لا بأس... شكرتُهُ على صنيعه وأنا لا أدري لما أشكرُهُ أصلا! العثور على فندق أمر بسيط جدّا، هؤلاء الّذين يتشبّثون بالعربة المعطّلة بدل دفعِها بينما يدفعها الجميع ثمّ يحصلون على الثّناء معهم، سحقا لهم!

نمتُ بعمق لم أبلغه منذ دهر طويل بين جدران غرفتي المهترئة وسريري الّذي يئنّ مع كلّ حركة أقوم بها، استيقظتُ بعدها ولم تكنْ حقيبتي بجانبي! لقد تعرّضتُ للسّرقة! نزلتُ إلى غرفة الاستقبال لأكتشفَ أنّي في مقرّ جمعيّة خيرية تدعى "association d'espoir" وهي تنشط خاصّة هنا في تولوز لتساعد الأشخاص الّذين أزرت بهم الظّروف، وذلك وفقَ ثلاث صيغ: الإيواء لفترة قصيرة والإيواء لفترة طويلة والإيواء المدمج، يا لها من حماقة! هل يبدو شكلي مثيرا للشّفقة بهذا القدر؟ هكذا إذن! لقدْ تمّ النّصبُ عليّ، لحسن الحظّ أنّي احتفظت بوثائقي الثّبوتيّة ونقودي داخلَ ثيابي، إنّها جمعيّة خيريّة، كيف لم ألحظ ذلك؟ لا بدّ أنّي كنتُ مرهقا، ذاك اللّعين! كيف أمكنَه خداعي؟ أ لهذا الحدّ هانتْ الثّقة عند الآخرين؟

حين رأت موظّفة الاستقبال الصّراع الّذي يدور بيني ونفسي وحيرتي، استفسرت عن قصّتي؛ فرويتُ لها سببَ قدومي هنا بِلُغة متعثّرة بعض الشّيء، طمأنتني بأنّي أستطيع المكوثَ بقدر ما أشاء وأنّهم سيساعدونني في عمليّة البحث عن ابن خالتي ديهيّة، بعدها عرضت عليّ التعرّف على بعض الوافدين من الوطن حتّى لا أشعر بالضّجر، رحّبتُ جدّا بالفكرة وأنا أتعجّبُ ممّا يحدثُ معي، هؤلاء الّذين يحاولون وضعَ الملحِ على جراحك ليؤلموك فيساعدُكَ ذلك في التئامها، أ ليسَ ذاكَ السّارقُ واحدا منهم؟! سيلقى ما يستحقّه ذات يوم، لا أزالُ حانقا من خداعِه لي، في الواقع ما يزعجني أكثر هو إخفاقي في تفرّس ملامحِه، أُقسمُ أنّه بدا طيّبا! لا بأس... فكلّ من يحاولون إبعادنا عن سبيلِنا، ما يفعلونَه حقّا في النّهاية هو تعديلُه فحسب.

جلستُ مع المقيمين في مقرّ الجمعيّة هنا في صالة كبيرة مزوّدة بتلفاز بلازما، شعرتُ أنّي جالسٌ في بيتِ أحد الأصدقاء بالوطن، كانوا سعيدين جدّا بقدومي بقدرِ سعادتي بهم، رحنا نتجاذبُ أطرافَ الحديث وكيف انتهى الأمرُ بكلٍّ واحدٍ منّا هنا، أغلبُهم كانَ فارّا من الظّروف وآخرون هزمتهم الحياة هنا في فرنسا وآخرون هم مجرّد عابري سبيل... جاء دوري وأخبرتهم باختصار بأنّي قدِمتُ باحثا عن أحد المهاجرين كي أساعدَ أمّه، استغربوا كيفَ أنّ رغبتي في معرفة بقيّة

حكاية شعبيّة جعلتني أكابدُ كلّ هذه المشقّة لكنْ داخلي علمتُ أنّ هذا لم يكن السّبب الوحيد، فقد أردتُ بشدّة أن أفعلَ شيئا ما من أجلِ خالتي ديهيّة، طلبوا منّي أن أروي لهم الحكاية الّتي فعلت بي ما فعلت، لكنّي أخبرتُهم أنّي سأعطيهم مختصرا عنها، وعندما ذكرتُ أنّ بطلَها يُدعى أڤمد انتفضَ أحدُهم ناظرا إليّ مندهشا...

-هل قلتَ أڤمد؟ من روى لك القصّة؟

أفزعتني ردّة فعلِه المفاجئة، بدتْ عيناهُ على وشكِ الخروجِ من محجريهما، أجبتُه:

-هي قصّة طويلة... رواها شخص يُدعى عمّي يغموراسن لصديقٍ لي.

-عمّي يغموراسن!

اتّضح لي من ردّة فعلِه أنّه استرجَع شيئا ما، نبرتُه تبحثُ عن تأكيد... عن معلومة إضافيّة.

-نعم، هو شيخٌ يقطنُ بقرية آث-سعيد في أعالي جبال تيزي وزّو...

بقي مشدوها للحظات... ثمّ سألني وكلّ ما فيه يرتجفُ حتّى نبرة صوتِه:

-المرأة الّتي تبحثُ عن ابنها، ما اسمها؟

-ديهيّة... خالتي ديهيّة!

-اقتربَ منّي، للحظة حسبتُه يريد خنقي قبلَ أن يعانقني باكيا وهو يقول:

-سبحان الله المعبود! "راك لقيته"... "راك لقيته"...

ردّدها عدّة مرّات لا أخالُه يأبَهُ لعددها، الأمور المدهشة كلّها الّتي صادفتُها خلال حياتي لم تمنع دهشتي الّتي صادفتني قبل قليل، قبلَ أيّامٍ كنتُ في غرفتي أضعُ خطّة لإيجاده خلال سنة، والآن فجأة تهدينا الصّدفُ إلى بعضنا في هذه الغرفة، لو لبثتُ سنواتٍ أكتبُ سيناريوهات توصلني إلى هنا ما أفلحتُ في كتابة واحدٍ بهذه الغرابة والرّوعة.

ظلّ أسامة يسألني عن أمّه وأحوالِها، لم يكنْ كثير الشّبه بها، رجلٌ متوسّط القامة يميل إلى أن يكون أشقرا بحاجبين خفيفين سوداوين وأنف معقوف كالمنقار، إذا صمتَ أطبق كأن ليس له ما يقوله وإذا تكلّم أسرعَ كأنّه يريد قول كلّ شيء دفعة واحدة، حكى لي عن ظروفِه هنا وصعوبة تكيّفه، بعض المغتربين ينجحون في بدء حياتِهم وبعضهم يفشل ويغادر ومن بين الجميع، أسامة هو الشّخص الّذي فشل وتمسّك بالبقاء في انتظار أن يحطّمه الأمل أو أن يحطّمَ أملَه،

كانت ليلة طويلة تعرّفتُ خلالها على شخص جميلٍ أهديتُه خلالَها كلّ نصائحي، حتّى تلك الّتي لم أعمل بها! وقاسمتُه خبرتي حتّى تلك الّتي لم أختبرها، أخيرا وجدتُ "أسامة" ابن خالتي ديهيّة، لن يصدّق أحمد هذا حين أخبره، أظنّني لن أصدّق نفسي أيضا حينَها، حان لناقوس الأفراحِ أن يدقّ بقوّة!

الآن سأغادر، سأستقلّ أوّل طائرة إلى الوطن، قبيل خروجي شكرتُ الجميع على هذا الاستقبال الجميل، طلبت منّي تلك المرأة في الاستقبال الانتظار قليلا لتعطيني شيئا ما، إنّها حقيبتي! قالت أنّ أحدهم أحضرَها وطلب منها أن تسلّمني الرّسالة، بعدَ كلّ ما حدث ما زلتُ أحظى بمزيد من المفاجآت الغريبة، فتحتُ الرّسالة فوجدتُ عبارة واحدة: "ملابسك الآن نظيفة!"، فتحتُ الحقيبة بسرعة ففاحت منها رائحة عطريّة جميلة، كانتْ بخّة من زجاجة عطريّة وضعَها في حقيبتي وعليها ملصقٌ مكتوب عليه: "هديّة إليك من عاصمة العطور"، أحسستُ بالخجل الشّديد، لقد كنتُ ظالما بإساءة الظنّ فيه كما ظلمتُ فراستي حين لم أثق بها... أنا أتعلّم الكثير اليوم!

دجّالة!

خلالَ أيّام قليلة كنتُ في الوطن رفقة أحمد والسّيدة مخطاري في بيتِ أريام، تقدّمتُ لخطبتِها رسميّا ولن يطولَ الوقتُ قبلَ أن نتزوّج، يجبُ ألّا نتركَ السّعادة تنتظرُ طويلا فقد تملّ الانتظار وترحل، أريام هي مفتاح الزّنزانة الّتي قبعتُ فيها، عليّ تركُ الماضي ورائي الآن، لا أعرفُ سائقا يتقدّمُ إلى الأمام بينَما يثبّتُ ناظريه على المرآة الارتدادية... يوم التّاسع من سبتمبر التقيتُ إيمان أوّل مرّة في السّاحة، كنتُ أبكي بينما يلعبُ الجميع، من بينِهم جميعا كانتِ الوحيدة الّتي تقدّمت إليّ لتواسيني ثمّ اقتسمت معي لُجتَها، من يومِها بقيتُ أسيرَ حبّها... أسير ذاك اليوم "الخامس من سبتمبر من العام السّعيد"، لا أدري لمَ أشعرُ بالحزنِ وكأنّي أوشكُ على خيانتِها، أظنّها أينما كانتْ، ستكونُ سعيدة برؤيتي أكملُ طريقي بكلّ ما أوتيت من قوّة وضعف حاملا كلّ آمالي وانكساراتي وأفراحي وأحزاني، نظرتُ إلى السّماء قائلا: "إيمان... أعتذر منك، فلترقدي بسلام..."

اليومَ قتلتُ إيمان ويسرى إلى الأبد، ليسَ الأمرُ بهذا السّوء، فالموتُ هو إنهاءُ وجود فحسب ليتكوّن كوجودٍ جديد في مكانٍ آخر، ما فعلتُه كانَ في صالح الجميع.

بعدَ أن أنهينا كلّ شيء رافقني عمّي يغموراسن وأحمد وميلين لإتمام ما بدأه أحمد وحيدا ذات مرّة، لا أظنّه تخيّل للحظة أنّه سيسلك هذه الطّرق مجدّدا وهو محاطٌ بأشخاص يحبّهم، على المرء الإخلاص لأمانيه وستجعل منهُ أمنيةً لغيرِه ذات يوم، الحبّ من أوّل نظرة ليس نادرا، فأنا أفعل ذلك كلّ يوم مع نفس الشّخص، مشينا وكلٌّ منّا ينظرُ للآخرين وتُخبرهم نظراتُه بكلّ ما يبوح به الرّضى، كلّ مرّة أرى فيها أريام هي مرّة أولى، المرّة الأولى هي مجرّد مرّة أخرى حين نلغي التّرتيب، لذلك قرّرتُ أنّه يمكنني العبثُ بها كما أشاء، التفتُّ إلى أحمد لأسلّمه نصيبَه أيضا من النّظرات، حينها تذكّرتُ قولَه وهو يصفُ ميلين قائلا: "الشّخص الوحيد الّذي يحبّها أكثر منّي هو أنا غدا!"، نظرتُ إليه تلك النّظرة الّتي مفادُها: "تبّا لك يا صديقي، كيف يمكنني اختراع شيء يجاري بلاغتك لأتفاخر به أمامها؟!"

مضينا إلى برّاكة خالتي ديهيّة لنزفّ لها الخبر الجميل ومن حسن حظّنا أنّها كانتْ هناك هذه المرّة، طبعا ستكون هناك، لقد قالت بالحرف الواحد: "أنتظركُما"، ليس لديها داعٍ للكذب علينا وعلى العكسِ الصّدق معنا وحدَه قد يعطيها مرادَها الضّائع منذ دهر.

أخبرتُها أنّ ابنَها بخير ويعيشُ بمدينة تولوز الفرنسيّة، سقطتِ الدّموع من عينيها وهي تحمدُ الله، كانتْ تشعرُ أنّه حيّ لكنّها احتاجت لسماع ذلك ومعرفتِه يقينا، سألتني:

-هل أحضرتَ صورة له؟

-كلّا يا خالتي، لكنّي فكّرتُ أنّ إحضارَهُ سيكون أفضل!

لم تصدّق خالتي وهي تراهُ يظهر بعدَ أن كانَ مختبئا خلفَ الشّجرة، لقد أقنعتُه بالقدوم بعدَ موعظة طويلة وأعترف أنّي بالغتُ بعض الشّيء في إثارة عواطِفه وحنينه وحزنِه أيضا، لم يكنْ يمتلكُ حياة في تولوز على كلّ حال لذلك كانت عودته أفضل وهذا ما تبيّنه الآن على ما بدا لي، لقد كانَ مشهدا دراميّا بامتياز ذكّرني بلقاء سمّان بوالده حمّان وبوالدته بعد غياب سنوات في إحدى أجزاء حكاية أَقْمَد[1]، انصرفتُ ريثما ينتهي هذا المشهد الّذي جعلني أشعرُ بالحرج، لطالَما كرهتُ مشاهدة أمور مماثلة، سأعودُ بعدَ أن تجفّ الدّموع...

عدتُ بعدَ يومٍ كامل رفقة أريام.

[1] من كتاب أسطورة أقمد (جواب بين نظرتين)

-تشمّين؟ ريح السّعادة تفوح من بُعد أمتار عن كوخ خالتي ديهيّة!

-إنّها رائحة "اللّوبيا" أيّها الغبي!

-لحظة! ممم معك حقّ، لكن ومن رائحتها أجزم أنّها وضعت بها كثيرا من الملح...

تبادلنا الدّعابات ريثما نصلُ إلى برّاكتها وبعدَ وصولِنا فاجأتني خالتي ديهيّة قائلة:

-للأسف، لا أعرفُ بقيّة الحكاية!

لقد خدعَتني! دجّالة! قبلَ قليلٍ ظننتُ أنّ لا سبب لديها لتكذبَ علينا، ها أنا ذا أثبتُ سذاجتي مجدّدا... قبلَ أن أقولَ أيّ شيء واصَلت:

-لكنّك وجدتَ من يعرفُها.

ابتسمَ أسامة ابن خالتي ديهيّة وقال:

-سأحكي لك بقيّتها اللّيلة!

بعدَ أن طلّق عمّي موسى خالتي ديهيّة لبثَ ابنُه في حضانته قبلَ أن يقرّر الهروب بعيدا بحثا عن حياة كريمة، هذا يفسّر معرفتَه لنهاية القصّة... ما كانَ عليّ إلّا العودة في اللّيل رفقة أحمد وعمّي يغموراسن، أين روى لنا أسامة أغربَ جزء من الحكاية قطعا، على ضوء الشّعلة...

حين نعيشُ في الوهم يغدو واقعَنا، لكن ماذا إن جاء يومٌ وأخبرنا أحدهم أنّ كلّ شيء كان وهما؟ هل سيكون من الأفضل الاستيقاظ أم مواصلة العيش فيه وتجاهل الواقع كأن لا شيء حدث؟

الفصل خمسة وعشرون والأخير

تيثريت وعائلتُها المرعبة مقبلون من خلفِ البحار السّبعة، أخيرا صاروا هنا على أرض جزيرة القيامة، أين تنتظرُهم تماثيل العفاريت العظمى المشحونة بالمانا منذ دهر، في هذه الأثناء كان "بارادوس" قد استفاقَ منتظرا ضيفَه الّذي سيحلّ بعدَ بضع دقائق، هذه الزّيارة مميّزة جدّا؛ فهي الزّيارة رقم خمسة وعشرين لنفس الضّيف.

على جزيرة القيامة، انطلقَ أڤمد بعد أن أومأت له السّاحرة أريناس بأنّ الوقت قد حان، ترَكَ الجميعُ أرضَ المعركة الأخيرة للعفاريت والشّياطين في مواجهة آخر ما تبقّى من نسل المخلوقات الجبّارة، ستكونُ حربا طاحنة؛ حربَ بقاء أو اندثار، بينَ كيانٍ يطمَحُ للعودة بعدَ أن اكتشفَ الحبّ وبينَ كيانٍ يدافعُ عن حياة كائنات أساءت للحبّ كثيرا لأنها اعتادت الغفران.

انطلقَ أڤمد في رحلة جديدة، هذه المرّة هو يعرفُ كيفَ يصلُ إلى العوالم العليا، بفضل القوى الغريبة الّتي حصلَ عليها من أكل الكائنات الأخرى، كتحمّل الحرارة الّذي أخذه من العجوز بومبي ونفث النّيران من أرض الجنّ والنيّران السّوداء الأسطوريّة من العفريت العظيم آبانوخ والجناحين من أكل

صديقِه البعوضة توشوشت، لعلّه صار الآن أقوى المخلوقات الفانية، تعجّب العفريت الأوّل مواي وهو يرى أڤمد يرحل، أمر القدر عجيب! لقد وضعَ مصير الجميع بيد مخلوقٍ فانٍ، كلّ القوى في الكون تركبُ سفينة بدفّة تكادُ تنكسر وسط الأمواج العاتية.

وصلَ أڤمد إلى عالمِ المربّين أو كما يُدعون "البشر"، هنا توفّي جدّ البعوضة توشوشت، ومن أجل الوصولِ إلى هنا ضحّى توشوشت أيضا بنفسه، هنا بدأت كلّ مشاكل الكون بسبب حماقة وتعجرف البشر ولا مبالاتهم، في آخر مرّة كان أڤمد فيها هنا، استطاع تحرير أريناس الّتي اختُطفت يومها، دونَ لقاء بشريّ واحد، لكنّه الآن يحتاج إلى لقاء أحدهم، هو لا يدري ما عليه فعلُه ببطاقة الغفران هذه، كانَ واثقا أنّ كلّ ما عليه هو السّعي، أمّا الأقدار فستبحث عنه وتجده، في هذه اللحظة تساءل أڤمد مجدّدا: "ما هو القدر؟"، تساءل للحظة ثمّ واصلَ بحثَه عن بشريّ ما.

كانتِ الرّياحُ شديدة، الأشجار هنا تبدو غريبة ولا حيوانات ولا عصافير تغرّد، يبدو وكأنّه لا توجد حياة على هذه الأرض... فجأة همّت يدٌ عملاقة بسحقه

لكنّه راوغَها بأعجوبة، يبدو أنّ هذا ما حدثَ مع جدّ توشوشت في الماضي! بعدها صاح في صاحِبِها بأعلى صوتِه:

-من أنت؟ أظهر نفسك!

-أنا الآلة!

-ما اسمك وماذا تكون؟

-اسمي "الآلة شربوش" حارس النّواة، ومن تكون أنت؟

روى له أڤمد ما حدث معه وسبب قدومه، عندئذ أخبره شربوش بالفاجعة، عالمُ البشر اندثر منذ زمن! وكلّما تبقّى منه هو مجموعة من الأدمغة المليئة بالذّكريات والتي يتمّ حفظُها وإنعاشُها في مكانٍ يدعى النّواة، سأله أڤمد حينها:

-وكيفَ اندثرَ هذا العالم؟

-ربّما عليكَ التّساؤل، كيفَ لم يندثر قبل هذا وصمد كلّ هذا الوقت، كلّ المؤشّرات كانتْ تشير إلى زواله حتّى في أزهى أيّام شبابه، لقد حاولَ البشرُ خلقَ الأدوات الّتي تحييهم وتمنحهُم الخلود، لقد حاولوا خلق حياة ثانية لكنّهم فوّتوا على أنفسهم الاستمتاع بحيواتهم، وذلك ما تسبّب في قتلهم، اخترع السّلاحَ

إنسانٌ خائف طلبا للأمن، وهجّن الغذاءَ إنسانٌ جائع ليشعرَ بالاكتفاء، واخترعَ الآلات إنسانٌ متعب ليشعرَ بالرّاحة، في النّهاية زرعَ السّلاحُ الرّعب ونشرَ الغذاءُ الأمراض، وصنعت الآلات إنسانا ضعيفا فاشلا! بعدَ أن تأكّد البشرُ أنّ عالَمهم سيزول قريبا اخترعوا أخيرا شيئا من أجل الحياة، اخترعوا النّواة وماتوا، إنّه قدرُهم وما كانوا ليتجنّبوه، كلّ ما بوسعهم هو اختيار طريقةٍ أخرى وطريقٍ آخر.

تساءل أڤمد محتارا عن هذه الكلمة مجدّدا، القدر... ما الذي يقصدُه بأنّهم لا يمكنهم تجنّب قدرهم؟ لو كانوا أحكم قليلا لجنّبوا أنفسهم هذا القدر الّذي يدّعي شربوش أنّه حتميّ لا مفرّ منه، حينَها أخرج أڤمد بطاقة الغفران وسأل شربوش عمّا يمكنُهُ فعلُه بهذه البطاقة، اعتذرَ شربوش عن مساعدتِه لعدم علمِه لكنّه أخبرهُ أنّه ربّما سيجدُ إجابة ما في عالمِ العمالقة... عندئذ طار أڤمد مجدّدا مغادرا هذا العالم الميّت، مرّ كما فعلَ في المرّة الماضية عبر الثّقب الأسود لكنْ بسلاسة أكبر، وصولا إلى عالم العمالقة، كانت دهشتُه كبيرة وهو يرى أنّ هذا العالم لم يتغيّر كثيرا، بل يصحّ أن يقولَ أنّه لم يتغيّر مطلقا! تعرّفَ عليه العمالقة في الحين، طلبَ منهم أخذهُ إلى صديقه العملاق "زور"، هبّ أڤمد إلى زور في شوقٍ كبير، تعجّبَ كثيرا وقال له:

-ما الّذي حدث معك؟ منذُ قليل كنّا معا!

-ماذا؟

أيقنَ أڤمد أنّ شخصا ما كان ينتحلُ شخصيّته في غيابه، شخصٌ قادرٌ على السيّطرة على ملامحه والتحكّم في جسده بشكلٍ رهيب، عندئذ تمّ إعلان الطّوارئ في أرض العمالقة وعمّ القلق في الأرجاء، قد يكون هذا الشّخص أيّ واحدٍ منهم حتّى أڤمد نفسَه.

جلسَ أڤمد إلى زور، كانَ الجو في الكهف مضطربا بسبب الرّياح الشّديدة في الخارج، تهبّ عاصفة مماثلة على أرض العمالقة كلَّ سنة منذُ خمسة وعشرين عاما، هنالِك في جدار كهف العملاقِ زور ثقبٌ ترتعُ فيه حبّة الغبار، الحبّة الّتي تعيشُ عليها كلّ عوالم الأراضي الوسطى كقرية الأفاعي والجان والفئران... في السّابق شعرَ أڤمد بالعجب الشّديد وهو يرى صغرَ الحبّة الّتي اعتبرها دوما كونا لا متناهيا حينَ كان عليها، لكنّه في هذه المرّة نسيَ أن يتفقّدها ولو فعل، لفهِمَ سبب اندثار عالم البشر، حبّة الغبار لم تعدْ موجودة بثقب الجدار بسبب الرّياح الّتي عمّتِ الكهف!

روى أڤمد لزور كلّ ما حدث معه منذُ آخر لقاء بينَهما، تعجّب زور كثيرا! كيفَ لكلّ هذا أن يحدثَ خلالَ بضع دقائق من الغياب؟

-بضع دقائق؟ لقد مرّت سنوات!

بدأت الأمور تتّضح الآن... الزّمن بين أرض العمالقة والعوالم الأخرى مختلفٌ تماما، دقيقة هنا قد تعني سنينَ عديدة هناك، أدركَ أڤمد الّذي حدث، هذا سيّء جدّا... من يدري ما الّذي يكون قد حدث أسفلَ هناك، ربّما مرّت سنوات خلالَ جلوسِه مع زور لدقائق! انتفض أڤمد من مكانِه سائلا زور عن بطاقة الغفران وما يمكنُه فعلُه بها، لكنْ مثلَ شربوش لم تكنْ لديه الإجابة الّتي يبحثُ عنها أڤمد، اصطحبَه زور إلى الشّخص الوحيد الّذي يعتقد أنّه بإمكانه تقديم المساعدة، الوسيط"قيفوع"! قيفوع لم يتفاجأ أبدا لدى رؤيته يحملُ هذه البطاقة الخارقة، يبدو أنّ عالما آخرَ سيندثرُ قريبا!

-بودّي أن أخبركَ عن الكثير من الأشياء، لكنّك لم تعد تملكُ كثيرا من الوقتِ قبلَ أن تختفيَ الهالة الّتي تحيطك.

استغربَ أڤمد وهو يتساءل عن أيّ هالة يتكلّم قيفوع، واصلَ قائلا:

-لا تتعجّب أحدُهم زوّدك بتعويذة ستبقيك خارج حدود الزّمان والمكان مادامت سارية، أنتَ الآن هنا لأنّك هنا، بمجرّد عودتك إلى عالمِك، سيتمّ التّلاعب بالزّمن والمكان مجدّدا داخل عشوائيّة احتمالات أماكن ظهور الإلكترونات داخل الثّقب الأسودِ الّذي أتيتَ منه، تقنيّا أنتَ لم تغادرْهُ حيّا، وأنتَ هنا لستَ سوى الاحتمال الّذي يقدّر بجزء من الملايير لنجاتك، كلّ نسخك الأخرى الجسيميّة والموجيّة هلكت.

كانَ فهمُ ما يقولُه الوسيط الرّوحيّ قيفوع غامضا ومبهما تماما بالنّسبة لأڤمد، مع ذلك كانَ مُحقّا، ففي كلّ لحظة سعى فيها أڤمد إلى عالم العمالقة ماتت نسخ لا متناهية منهُ، ووصلتْ النّسخة الوحيدة الّتي تحملُ تعويذة الحظّ وهي آخر ما بقيَ من سحرِ أريناس، احتاجَ أڤمد لسماع شيء واحد:

-ما الّذي يمكنني فعلُه ببطاقة الغفران؟

-اسلك بوّابة العالم الخامس ويدعى عالم النّدم، هناكَ ستجدُ بارادوس في انتظارك.

-ومن يكون هذا؟ وهل يعرف ما عليّ فعله؟

-لا أدري لكن من المؤكّد أنّه يعرف ما عليك ألّا تفعله!

انطلقَ أڤمد متتبّعا الطّريق الّذي دلّه عليه الوسيط قيفوع، وحينَ دخولِه بوّابة العالم الخامس "بوّابة النّدم"، استطاعَ أن يرى هذه المرّة جسدهُ يتفرّق إلى عددٍ لا متناهٍ من الأطياف التي تتحوّل إلى غبار مضيء داخل الثّقب الأسود الهائل، كان يتساءل هل شعرَ بالألم في كلّ عالم من تلك العوالم؟ وهل عليه أن يهتمّ؟ هل عدمُ شعوره بشيء يجعل النّسخ الأخرى أشخاصا آخرين غرباء عنه لمجرّد عدمِ شعوره بآلامهم؟ وهل يعني هذا أن شعورنا بآلام غيرنا يجعلُهم جزءا منّا في هذه الحالة؟ أسئلة كثيرة جابتْ عقلَه وذكرياتٌ كثيرة آنستْهُ وهو يسعى إلى لقاء بارادوس أمين عالم النّدم، أدركَ أڤمد برؤيتِه بقيّة النّسخ أمرا واحدا، لقد كانتْ موجودة طولَ الوقت، لكنْ بعضُ الأمور في حياتِنا لا نراها إلى أنْ ندركَ وجودَها، فتصبِحُ فجأة جليّة أمامنا بشكل لا يكادُ يخفى! أخيرا وصلَ أڤمد إلى كيانٍ هائل...

-لقد أتيتَ أخيرا لتندم.

-بل جئتُ لأنقذ عالمي.

-نعم، لتنقذ عالمك وتندم كما فعلتَ في السّابق.

-كما فعلتُ في السّابق؟

-إنّها المرّة الخامسة والعشرون الّتي تأتي فيها هذه النّسخة منك إليّ!

كانَ أڤمد ليظنّ أنّ إحدى نسخِه الّتي نجت حضرت إلى بارادوس من قبل، لكنّه حين قال "هذه النّسخة منك"، أثار دهشتَه واستغرابَه بشكل كبير.

-لكنّها المرّة الأولى الّتي أحضرُ فيها إلى هنا!

-كونُكَ نسيت لا يلغي حقيقة قدومك... لقد طرحتَ ما يكفي من الأسئلة خلال حياتك، وبما أنّها المرّة الخامسة والعشرين الّتي تحضرُ فيها إليّ سأكون كريما معك وأعطيك الإجابات الّتي تحتاجُها، لعلّك تصحّح ما تظنّه خاطئا من قراراتك.

خشعَ قلبُ أڤمد وأولى بارادوس كلَّ حواسِّه وجوارحِه، حينها بدأ بارادوس يسردُ الأحداث الّتي قلبتْ كلّ المفاهيم الّتي استمرّ عليها الكون لملايين السّنين:

-قبلَ زمنٍ طويلٍ عاشَ البشرُ على أرضِهم، كانَ كلّ شيء بخير إلى أن راحوا يعبثون بها، تارة بالحروب وأخرى بالاختراعات المؤذية... بعد ملايين السّنين من التّراكُمات، تغيّر المناخُ في أرضهم، لذلك راحوا يبحثون عن أراضٍ أخرى للعيشِ فيها، لكنّهم عجزوا عن إيجاد مكانٍ يناسِبهم، ومع تيقّنهم من قربِ زوالِ العالم، اخترعوا الآلة الذّكيّة شربوش وبرمجوها على حماية النّواة، النّواة هي نظامٌ في غاية

الذّكاء اخترعُه البشر بدوره، عرضَ مخترعوه على البشريّة عيشَ حياة ثانية بفضل النّواة، وذلك باستخلاص الأدمغة من الأجسام ووضعها داخلَ النّظام الّذي سيحافظ على حياتها بكلّ ما تحمِلُه من ذكريات، ستعيد النّواةُ إسقاطَ صاحبِ الدّماغ في عالمٍ آخر متداخلٍ مع عالم البشر، المشكلة أنّ النّظام لم يتقبّل الجميع، بل تقبّل البشر الّذين لم تنتهِ مهمّتهم في الحياة وقامَ ببعثِهم على شكل مخلوقات أخرى، أنتَ وزور وقريتك والعفاريت وأنا... كلّنا إسقاطات حقيقيّة لأشخاصٍ لم يكملوا أدوارَهم في الحياة، وحينَ تنتهي أدوارُهم سيموتُ الدّماغِ الموجودُ في النّواة.

-تقصدُ أنّي مجرّد ذكرياتٍ يعيشُها دماغُ شخصٍ اندثرَ منذ دهر؟

-ذكرياتٌ لم تحدث، لكن فورَ قيامِك بها سيُعادُ إسقاطُها عكسيّا عبر النّواة لتصبِحَ ذكرى حقيقيّة، خطوة تقومُ بها الآن تقابلُها خطوة في الماضي، وكلّ خطوة تعدّل في الماضي ستعدّلُ أحداثا كانَ المفترضِ أنّها ستحدثُ، أنظر هناك!

نظر أڤمد حيثُ أشار بارادوس، فرأى نجما كبيرا يظهرُ فجأة.

-هذا نجمٌ دمّره البشر في الماضي، لكنّ ما أخبرتُك به قبلَ قليل غيّر الكثير من أفكارك الّتي غيّرت في الماضي وجعلَهم يتراجعونَ عن تدميرِه!

-لكن الرّياحَ في الكهف هي من دمّرت عالم البشر، كيف تقولُ أنّ الكهفَ الّذي هبّت به الرّياح تمّ اختراعُه بعدَ فناء عالمهم؟ إذا كانَ الكهفُ ورياحُه جاءا كإسقاط ونتيجة للفناء، فكيفَ يكونان في نفس الوقت سببا فيه؟

-الأمر صعبٌ الشّرح، الكثيرون يظنّون أنّ العوالم محتواة داخلَ بعضِها ومنفصلة، لكنّها عبارة عن تموّجات متداخلة في بعضها ومتشابكة، فنحنُ مثلا من إسقاطين وعالمين مختلفين وها نحن نلتقي بحيث يمكننا أن نلمسَ بعضَنا بل ويمكننا أن نلمس الدّماغَ الّذي أسقطنا! هل سبقت رياحُ الكهف البشرَ لتقتلَهم أم أنّ البشر اخترعوها بعدَ موتهم في كهف ترتعُ فيه حبّة الغبار بعدَ سنين من موتِهم؟ الجواب هو الاثنان معا! سيكون عليك خوضُ رحلة إلى الأعلى ولربّما ستجدُ مزيدا من الإجابات.

-إذن أنا وكلّ هذا الكون الّذي نعرفُه، كلّنا إسقاطات مشتركة؟

-في الواقع ما تعيشُهُ الآن هو إسقاط دماغك فقط، النّواة تجعل بقيّة الأدمغة تعير دماغكَ شخصيّتها وذكرياتِها ليوظّفها دماغُك في هذا العالم الّذي اخترعَه، أنتَ الوريث لأنّك صاحب هذا الكون الّذي اخترعتَه.

-تقصد أنّ هنالكَ أكوانا أخرى اختُرِعت ولستُ فيها الوريث؟

–تماما، كما أنّك لستَ أفعى ولا تنّينا فيها، قد تكونُ أيّ شيء! الفرقُ بيننا أنّي الإسقاطُ الوحيدُ المشترك بينَها، أنا أمثّل الوعي فيها، في كلّ دورة للكون أقابل الوريث من كلّ كون، وأخوض معه حديثا مشابها لحديثي معك.

–ماذا عن بطاقة الغفران؟

–بطاقةُ الغفران من شأنِها أن تعيدَ الكونَ إلى نقطة البداية مجدّدا حين تستعمِلُها، لكنّك فعلتَ ذلكَ أربعا وعشرين مرّة سلفا ولا شيء تغيّر، الجميعُ يتّخذُ القرارات الّتي اتّخذها ولا يحيدُ عنها قيد أنملة، إنّه القدر!

–تقصدُ أنّي لن أستطيعَ إنقاذ العالم؟

–أخبرتُكَ سلفا، العالمُ انتهى بموتِ آخر بشريّ، سنبقى ما دامت أدوارُنا لم تنتهِ، ومادامت الأدمغة حيّة، قدرُ عالمكم أن يتدمّر لأنّ حبّة الغبار الّتي يقبعُ فوقَها عالمُ البشر، سقطت من ثقب الكهف، ما ولّد عواصفا قضت على البشر، وبفناء عالمِهم سيفنى عالمُكم، قتال العفاريت والشّياطين و الجبابرة ليسَ إلّا سببا للفناء، عالمُ البشرِ كانَ سيفنى حتّى دونَ حروب أو مجاعات، لأنّ حبّة الغبار الّتي يعيشون عليها سقطت، الإسقاطات الذّكيّة في النّواة تهيّء أسبابا مناسبة للنّهاية فحسب، مستعملة في ذلك مخاوفَ العقل الّذي يولّدها وكوابيسه وتشاؤماته،

حينَ يحينُ الوقت ستخترع النّواة إسقاطا لكارثة ما، تقنِعُ عقولكمْ أنّ الكارثة سبب فنائكم، لكن هنا وفي العالمين السّادس والسّابع فوق، ندركُ أنّكم منتهون منذ زمن، حبّة الغبار تستغرقُ لتسقط بعضَ الدّقائق لكنّها في عالمكم سنين طويلة، ستتقاتلُ فيها القوى العظمى من عفاريت وشياطين وجبابرة حتّى الفناء.

لم يستوعب عقلُ أڤمد كلّ هذه المفاهيم المختلفة، طيلة حياته عاش في وهم كبير.

-إذن، هل ستستعمل بطاقة الغفران وتعطي الكونَ فرصة جديدة ليعيش ملايين السّنين مجدّدا؟

نظر أڤمد طويلا وعلمَ أنّه سيندمُ في كلّ الأحوال...

-لكنّ العالم تدمّر سلفا!

رمى أڤمد البطاقة وقرّر العودة أدراجَه، عِلمُنا بما يجهلُه الآخرون يجعلُنا نبدو مخبولين حين نتّخذُ القرارات الّتي لا يفهمون سببها، ما الّذي يريدُه أڤمد الآن بعدَ أن أدرك الحقيقة؟ هل يصعدُ إلى العالم السّادس؟ كلّا، فهناك سيعلمُ أمورا لن يرتاحَ أبدا إن علِمها، هو في عالمِ النّدم الآن وسيندمُ على كلّ قراراتِه في كلّ الأحوال، غير أنّه قرّر النّدم على عدمِ فعلِه شيئا بدل فعلِه، ما الّذي يريدُه أڤمد

فعلا؟ عندما يعودُ إلى عالمِه سيكونُ قد غاب بضعَ دقائقَ فقط، فهو هنا خارج حدود المكان والزّمان، هناكَ أينَ تتصارعُ المخلوقات العظمى إلى أن تفنيَ العالم، الوحيدان اللّذان علمَا بشأن النّواة والآلة هما العفريتُ حمّو-قيّو وهذا ما يفسّر استعانَة هذا الأخير بالبشر لاختطاف أرياس في الماضي والثاني هو العفريت الرّوح أغوليد، رغمَ ذلك قرّر حمّو-قيّو وأغوليد عيشَ الحياة الّتي أسقطتها الأدمغة بانفصالٍ تامّ عمّا يعرفانه، هذا منحَهما السّلام الدّاخليّ، كان عِلمُ أغوليد بهذا سبب انسحابِه من الحرب الأخيرة بجزيرة القيامة، كانَ بإمكانِه المساعدة في التغلّب على أولمك، لكنّه رأى أنّ الحفاظ على حياتِه ستكونُ في صالحِهم، سيطيلُ ذلك عمرَ الحرب وبالتّالي عمر العالم!

أدركَ أڤمد الآن ما الّذي يريدُه، هو يتوقُ إلى الرّجوع إلى قريتِه، عندئذ طلبَ منْ بارادوس أن يدلّه على سبيل العودة إلى أصلِه كأفعى، حينها أجابه:

-كان عليكَ أن تطلب فحسب! أطلب ذلك من البحيرة وألقِ نفسكَ فيها.

محظوظ بي

سكتَ أسامة ابن خالتي ديهيّة للحظة ثمّ نظر إلينا وقال:

تقول الحكاية أنّ أڤمد فعلَ ما أخبره به بارادوس وعاد أفعى من جديد وعاشَ بين أهله وقريتِه إلى الأبد، لقد كانَ يومُ خروجِه من قريتِه السّجن الّذي علقت فيه روحه منذ البداية، وكانَ عليه أن يعودَ إليه، رغمَ كلّ الأمور الّتي خاضها ورغب بها بقيت رغبتُه في العودة إلى الزّنزانة الّتي لم يستطع الخروجَ منها، عاشَ أڤمد بعد عودتِه بين أهل قريتِه وهو يأمل بأن يغيّر الحاضرُ ما يكفي من الماضي لكي تعودَ البشريّة مجدّدا، على كلّ حال، بقيت قرون ربّما على نهاية عالمه الّذي يعيشُ فيه ولن يسعفه العمرِ لرؤية النّهاية، الكون بدورِه عاشَ قدَرَه مرّات عديدة باحثا عن قدرٍ آخر، كانَ عالقا في زنزانة يوم لقاء أڤمد ببارادوس، وفي المرّة الخامسة والعشرين تقبّل قدره، أمّا المخلوقات الجبّارة والعفاريت، يقالُ أنّها تصارعت لوقت طويل جدّا، وتسبّب نزالُها في نهاية العوالم بداء من هناك، من جزيرة القيامة.

-"ومشات حكايتي من واد لواد وأنا خلّيتكم مع النّاس الجواد."

بهذه العبارة أنهى أسامة قصّة أڤمد...

-هذا الفصل! يجمعُ بين الأسطورة والخيال العلميّ!

-إنّه الفصل الكبيس يا صديقي!

-الفصل الكبيس؟

-نعم! أخبرني -أبي رحمه الله-أنّ أسطورة أڤمد مميّزة جدّا، وما يميّزها هو أنّ كلّ شخصٍ له الحقّ في أن يرويها بإضافاتٍ من عنده.

هنا تذكّرتُ ما قصّه عمّي يغموراسن لأحمد واستعماله مصطلحات تقنية كسرعة الضّوء والثّقوب السّوداء وأثرها... هكذا إذن، لم يكن ذلك جزءا من الرّواية فعليّا.

-أ ليس هذا مخاطرة بزوال الأسطورة الفعليّة وانسحاقِها تحتَ تراكُمات الإضافات؟

-هذا واردٌ جدّا وقد بعثكَ الله لتكونَ سببا في حفظها وتوثيقِها إلى الأبد.

-لم أفكّر في الأمر على هذا النّحو من قبل لكن اعلم أنّه يسرّني كلّ السّرور أن أحظى بهذا الشّرف!

ابتسم أسامة وجالسٌ يحتضنُ أمّه بيده ومحرّكا الحطب بعودٍ يلتقمُه بيده الأخرى ثمّ قال.

-أشكرك كثيرا، على فكرة أكثر ما يميّز الأسطورة هو الفصل الخامس والعشرون، سمّي كبيسا لأنّ قليلين هم من يستوعبونه ويستطيعون أن يرووه مجدّدا، فغالبا ما تتوقّف الحكاية عند الفصل الرابع والعشرين بنهاية مفتوحة إلى أن يظهر بين الحين والآخر من هو قادرٌ على إكماله، كما يُلزَم راوي على عكس الفصول السّابقة بإضافة لمستِه وإبداعِه على مجريات هذا الفصل زيادة على ما سمعَه ممّن قبلَه وهكذا.

-أتقصدُ أنّي لستُ ملزما بتوثيقه في الكتاب الّذي أنوي نشره؟

-الأمر يعودُ لك، لكن أرى أن توثّقه ليأخذ منه الرّاوون خطوطه العريضة وإن اختلفت النّسخ.

-محقّ جدّا.

-ماذا سيكون عنوان كتابك؟

-الزّنزانة... الزّنزانة 905!

غادرتُ تلك اللّيلة ولم أجرء على شرح سبب التّسمية، ليسَ لأنّي خشيت العودة إليها إنّما لجعلِها أثرا وعجيبة من العجائب الّتي سيسافر القرّاء في فصول الرّواية بحثا عنها... لم يعدْ ثمتَ من شكّ، إنّها نهاية هذه القصّة الجميلة، كنتُ محظوظا بتوثيق هذه القصّة الفريدة أخيرا كي لا تضيع في الزّمن؛ وذات يومٍ سيدرك العالمُ كم هو محظوظ بي لأنّي نقلتُها إلى بقيّة الأجيال... أسطورة أڤمد ليست مجرّد حكاية! بل هي فلسفة حياة، جعلتني أرى القدر من مفهوم آخر وعلّمتني أنّ رغباتنا تشبهُ الزّنزانة الّتي نتوقُ إلى الرجوع إليها مهما ابتعدنا، وقد يكون علينا إغلاقُ بابها وإتلافُ المفتاح كي نجبرَ أنفُسنا على تجاوُزها، فرغباتنا ليست قدرَنا دوما وقدرُنا ليسَ رغبتنا بالضّرورة، كنتُ مسرورا جدّا بكوني سببا في اجتماع خالتي ديهيّة بابنها مجدّدا وسعيدا بسعادة أحمد وميلين معا، لكنّي كنتُ سعيدا بشكلٍ لا يصدّق لأنّي وجدتُ أريام الّتي ساعدتني على أن أوصد باب الزّنزانة 905...

إيمان ماتت وتخلّصتُ من يسرى، سمعتُ أنّها انتهجت طريقَ الفنّ وأصبحت مبدعة فيه، أمّا عليّ فقد تزوّج سلمى صديقتَها بعد أن أسَرتْهُ روحُها الطّيبة واقتنَع أخيرا أنّه النّوع من الجمال الّذي لا يُملّ ولا يزول إلّا بزوال صاحبِه، وحتّى عند ذلك سيبقى أثرُه في النّفوس ككدمة قديمة في وجه طفل لكنْ بشكلٍ

جميل، غدا يومُ عرسي أنا وأريام لذلك أحاولُ انتقاء هذه الكلمات قدر المستطاع، للأسف أشعرُ أنّي قلتُ أجمل كلماتي خلال الفصول السّابقة، على كلٍّ غدا يومٌ جميل، العمّالُ يعلمونَ أكثرَ من غيرِهم أنّ أجملَ الأوقات هي يوم الرّاحة، لكنّ الوقت الوحيد الأجمل منه هو نهاية اليومِ الّذي قبلَه، أين تشعُرُ أنّك تملِكُ شيئا جميلا كاحتياط، وذلك أجملُ قطعا من استهلاكِه وليسَ لديك احتياطيّ يبهجك.

كان أحمد محقّا حينَ نصحني بالمحاربة من أجل ما أريد رغمَ كلّ الصّعوبات، الثّقة فيمن ينصحنا أهمّ من النّصيحة ذاتِها، قد ينصحك أحدهم بالجريِ لكي تشعرَ بالدفء وفور بدئك الجريَ تشعرُ بالبرد مع اختراقك الهواء بسرعة، حينَها ستتوقّف إلّا إن كنتَ تثقُ بصاحب النّصيحة، وحين تواصل سيحيطك الدّفء بعد لحظات...

ذات مرّة حكى لي أحمد عن تلميذ أخطأ بكتابة التّاريخ في كرّاسِه فسأله:

-أستاذ، هل عليّ محو التّاريخ؟

شرد أحمد طويلا ثمّ سألَ تلميذَه مجدّدا:

-وهل نستطيع فعل ذلك؟

بعدها اقترب منه ثمّ قال له:

–"هنالك ما يكفي من المستقبل لصناعة تاريخ جديد، كلّ تمرين يصادفك عامله على أنّه اختبار وحينَ يحين الاختبار ستجد أنّك تحلّ مجرّد تمرين آخر، قم بما عليك وانتصر لحقّك، لكن حين تحتجّ على علامتك فاحتجّ بورقتك الّتي بها الخطأ لا بالصّواب الّذي في ورقة زميلك، قد تجد أنّك على صوابٍ في كثير من الأحيان لكنّه ليسَ الصّواب الّذي يريده الآخرون فقدر الوضوح يختلفُ بين الأفراد، قوانين الدّنيا يا بنيّ لم تأتِ لتوضّح الصّواب، بل لتردع من يفقدونه."

لطالما كان كلام أحمد ملهما للجميع، أظنّ أنّ كلّ ما بوسعِنا فعلُه هو عدم الخضوعِ للتّواريخ السّعيدة، فلا شيء يدعو للحزن بقدر اللّحظات السّعيدة الّتي لم تعد لنا...

رغمَ ما عنتْهُ لي كلّ من إيمان ويسرى، كان من المستحيل أن أخوضَ حربي إلى ما أريدُ دونَ ضحايا، أحيانا علينا قتلُ بعض الأشخاصِ لنعيش...

النّهاية.

بلغنامي عبدالرحيم

الزنزانة 905

"حين تمضي في الطريق تغيّرك وتغيّر من طريقتك
وحين تتغير أنت ستغيّر ما تلقاه حين تمضي
في بقية الطرق لينا سب طريقتك
هل تمر بالأشياء الساكنة أم تقف بينما تمرُ بك الأشياء؟
هل يشكّل ذلك فارقا مادام كلاهما تقدما؟
ظنّ عليّ أنّه بدل انتظار أن تلاقيه الأيّام بيسرى
بإمكانه السّعي للقائها... إن كانتْ قد نجتْ
قرّر ذلك وهو لا يدري إن كان تقدُّمه
نحو الأشياء سيقدّم شيئا غير الزّمن."

ISBN: 978-91-89273-948

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm